على الضفة الأخرى من العالم

اسم الكتاب: **على الضفة الأخرى من العالم**

اسم المؤلف: **شروق عبد النعيم**

تدقيق لغوي: **هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **وحيد محمد**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٣٢٤**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١١٠٤**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

شروق عبد النعيم

على الضفة الأخرى من العالم

إبهار
للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى أمي، التي قالت لي في الســابعة من عمري و هي تضــع أمامي دفتر أصـفر اللون "اكتبي، ما دمتِ لا تقدرين على التعبير باللسـان" و إلى أبي الذي اهداني الدفتر الثاني.

إلى أخي الـصغير و رفيق دربي، و إلى كل أ صدقائي الذين ا ضافوا لكتاباتي قيمة بآرائهم، و أثروا قصصـي بحكاياتهم.. انتم مصدر إلهامي و مصدر ثقتي.

و إلى مدينتي الفا ضلة المتمثلة في شخصٍ واحد، قرر يوماً تجميع كل ما كتبت في كتاب واحد، هو ما بين ايديكم الآن.

و أخيراً إلى روح توفيق الحكيم، و صوت فيروز الذي يحيي كل امسياتي.

صديقة الموتى

في المشرحة، وقف أمام وجهها لا يدري ماذا يفعل، تجمَّد الدم في عروقه، وجفت الدموع في عينيه، وصار واقفًا كالصخرة لا يهزها ريح، حتى إن ملامح وجهه لم تتبدل مطلقًا، وعلى الرغم من ذلك كان بداخله بركان ليس بقادر على الانفجار. لم يتوقع يومًا أنه سيحمل ابنته الشابة بين يديه في المشرحة التي قضى فيها قرابة ثلاثين عامًا، حتى كادت تكون علاقته بالأموات أقرب من علاقته بالأحياء. صارت هناك لغة تفاهم بينه وبينهم، لا يخشاهم ولا يقشعر جسده لرؤيتهم ولا حتى يخشى الموت، فهو بالنسبة إليه ضرورة ملحة كالأكل والشرب، فلمَ يخشاها الإنسان إلى هذا الحد؟

لم يكن ذلك حاله بالطبع في أول يوم تم تعيينه عاملاً في المشرحة، فقد كان شابًا يحاول البحث عن أي وظيفة تؤمن له قوت يومه، وقذفه القدر بين أحضان الموت، كي يذوب فيه كل يوم وكل ساعة، ويصبحا شيئًا واحداً لا يخشى أحدهما الآخر. كان أول يوم له في هذا المكان مذعوراً مفزوعًا حد الإغماء، لم يكن أبداً هذا الشخص الجامد القلب والعواطف كي يتحمل مشهد الموتى كل ساعة يدخلون ويخرجون، لم تكن أذناه قادرتين حتى على سماع صرخات الأهالي وبكاء كل من يمر بهذا المكان، لحظات الوداع قاسية فما بالك بالوداع الأبدي، كيف لإنسان أن يتحمله؟!

في أسبوعه الأول في المشرحة كان يقرر كل يوم أنه سيترك العمل، لكنه حين يقارب على اتخاذ هذا القرار وتنفيذه فعليًا يجد أن بقاءه في هذا المكان ضرورة لا مفر منها، فلم تكن أمامه بدائل أخرى وقد قضى ما قضى على كرسي القهوة منتظراً ماذا سيجلب له القدر، ويا ليته لم يجلب، لكنه يعود فيقول إن كرسي القهوة كان أرحم وألطف بحاله، فتلك المشرحة تقتله تدريجيًا كل ساعة، ولو كان الأمر بيده لترك كل هذه الجثث وفرّ هاربًا، لكن يظل السؤال من أين سيدبر المال؟ فيعود منكسًا رأسه مستسلمًا لرغبات الأموات في أن يظل محافظًا على أجسادهم البالية إلى حين إشعار آخر.

كان يشفق في البداية على هؤلاء الذين يرافقون هذا الميت أو ذاك، يحاول أن يحتضنهم بكلماته وأحيانًا ما يجد نفسه يذرف الدموع معهم، كأنه واحد منهم، وأحيانًا أخرى يشفق على حال الميت نفسه إذا لم يرافقه أحد، وقد كتب عليه أن يغادر الدنيا وحيداً كما عاش فيها وحيداً في أغلب

الأحيان. في تلك الفترة كان كارهـًا للموت، كارهـًا رائحة الموتى وألوانهم الباهتة وأجسادهم الفاترة الباردة، يكره حتى تلك الملاءات البيضاء التي تغطي أجسادهم، كأنها تعدهم إعداداً بطيئـًا لتقبل أكفانهم.

كانت تكمن بداخله رغبة في أن يقوم بهزهم بعنف كي يعيد إليهم أرواحهم مرة أخرى ويمكنهم من الرحيل من هذا المكان البشع، لكنه لا يستطيع، فكان يكتفي بتغطية وجوههم بتلك الملاءة البيضاء، ويعود إلى مقعده الثابت كثبوت أعينهم. مر عام وراء عام، وصار يقضي معظم وقته بين هؤلاء الأموات، يقضي يومه كله في المشرحة مستقبلاً ومودعـًا إياهم، حتى صار يشعر بالانتماء إليهم أكثر من الانتماء بعالم الأحياء.

كان كثيراً ما يقضي ليله بينهم متحدثـًا عن همومه ومشاكله التي لا حد لها، وصارت له هواية أن يمر بينهم يتفقدهم واحداً تلو الآخر محاولاً تخمين قصص حياتهم مما تبدو عليه مظاهرهم. اعتاد سكونهم وألوانهم الباهتة، ومِلاءاتهم التي كان يكرهها من قبل، اعتاد تواجدهم في حياته واعتبره أمراً طبيعيـًا ويسري حقـًا على الجميع، فيومـًا ما سيرقد بينهم ويشعر بما يشعرون، حتى أهاليهم لم يعد يشعر نحوهم بالألم أو الشفقة، بل إنه كان يقابلهم بفتور وحدة راغبـًا في أن يسكتهم بالقوة؛ كي لا يفسدوا سكون أصدقائه الأموات.

لم تنزل دموعه منذ زمن، بل أصبح يشعر بالنشوة كلما أقبل عليه ضيف جديد بقصة جديدة تكمن وراء مجيئه، لم يلحظ تغيره أبداً، ولم يظن أن

مشاعره قد ذبلت كما ذبل جسد أصدقائه، لكنه بدأ يدرك أن مشاعره قد أصابها الفتور في تلك اللحظة بالذات.

فاليوم هو لا يستقبل صديقـًا جديداً، بل هو في استقبال ابنته الشابة، التي لم يتجاوز عمرها العشرين عامـًا، واختارها القدر دونـًا عن الجميع في حادث مؤسف أسفر عن موتها، بل واندثار ملامحها، حتى لم يعد التعرف عليها أمراً سهلاً، مما أودى بها إليه، في مشرحته. راقدة في الفراش كنجمة سقطت من السماء فانطفأ بريقها فجأة، وقد كانت تضيء حياته كلها، ها هي الآن بين يديه لا يدري ماذا يفعل بها أو يقول لها، لا يدري أين فرت منه مشاعره، فلم يعد قادراً حتى على البكاء، يشعر بشيء لا يمكن أن يقال عنه الفزع أو الحزن، فهو أصبح غريبـًا عن مثل تلك المشاعر، لكن ثمة غصة في حلقه تشعره أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة في غضون ثوانٍ قليلة. لا يدري إن كانت روحه تتحطم الآن حزنـًا على فراقها أم حزنـًا على مشاعره التي لم تعد تجد طريقـًا إليه، فأحيانـًا ما يعجز الناس عن ردود الفعل رغم قسوة الأحداث، وهذا بالضبط ما كان عليه.

تسارعت أنفاسه، وعاد قلبه للنبض من جديد، حتى كاد يقفز من بين ضلوعه، شعر بالدوار والاختناق، وكأن جدران المشرحة تطبق على أنفاسه.. اقترب منها ولمس وجهها بيد بدأت تسري فيها الرعشة تدريجيـًا، وكأنه بدأ يصحو مرة أخرى، اقترب أكثر من وجهها وقبَّل جبينها ثم لمست دمعته الوحيدة التي نجحت في الفرار من زنزانة روحه بشرتها. جلب كرسيه الساكن وجلس جوارها، وقضى ليلته يحكي لها عن كل سنواته في هذا المكان الذي سلبه قدرته على الحزن حتى على ابنته.

عازفة الحروف

وهج ضوء أصفر خافت، ولحن فرنسي قديم يحلو لها كلما أرادت أن تكتب، فتجلس على مكتب صغير موضوع أمام شُرفتها، كانت مؤمنة أن النظر إلى ذلك الفراغ الواسع يُتيح لها فرصة أفضل للتفكير والتحليق في سماء الخيال أكثر وأكثر، كانت تُحب تلك الطقوس بتفاصيلها الصغيرة أكثر من أي شيء آخر في يومها، فتلك التفاصيل البسيطة كانت تضخ في نفسها الحياة، وتبعث في قلبها الاطمئنان والشعور بالرضا، وقليلاً ما كانت تشعر بهما. ترفع شعرها إلى أعلى وتمنعه من الانسدال على كتفيها، كأنما هي مقبلة على مُهمة قوية تحتاج إلى كل تركيزها وعدم انشغالها بشيء سواها، ثم تقوم بفتح "اللاب توب" الخاص بها، وتبدأ أصابعها في الانتقال بين الأحرف كعازفة بيانو في حفل موسيقيٍّ كبير، تنتقل من هذا الحرف إلى ذاك، وتشعر بداخلها أن الأحرف تبعث لها ألحانًا مثلها كمثل اللحن الفرنسي الذي تستمع إليه، بل أكثر رقة وإحساسًا، وتكتب:

"يا صديقي.. هل توافقني الرأي على أن قُدرتنا على الشعور بالحزن تتناقص تدريجيًا كلما ازداد شعورنا به في الماضي؟ سأشرح لك الأمر بوضوح أكثر.. إنني صرت أرى الحزن كصندوق يحوي الكثير جداً من الرمال، كلما مررنا بمحنة أو داعٍ للألم تخرج تلك الرمال من صندوقها، وتصبح عاصفة قوية نظن أن لا مهرب منها أبداً، وأنها ستظل تُشوش رؤيتنا وتخنق أنفاسنا إلى أن ننتهي، ونفقد القدرة على المقاومة، لكننا في الواقع نقاوم ونقاوم؛ لأن بداخلنا رغبة في الحياة، مهما بدا علينا الاستسلام للحزن والوجع، فهناك بقعة مُنيرة في أنفسنا تأبى أن تتلاشى أو أن يحل محلها ظلام دامس، ويوم أن نتمكن من تجاوز العاصفة، يكون ذلك الصندوق قد فرغ من قدر مُعين من الرمال، لن يعود إليه أبداً.

وهكذا يا صديقي، فكلما ازداد ألمك ازدادت رمال العاصفة، وفي الوقت ذاته فرغ جزء أكبر من صندوق الحزن.. فلا أدري إن كان عليك التَّبسُّم لذلك الخبر أم الشعور بالخوف، فإنهاء صندوقك مشروط بعواصف كثيفة مُرهقة للنفس، لكن على أية حال دعني أحدثك عن هذه اللحظة بالذات يا صديقي، دعنا ننظر إلى تلك اللحظة التي نعيشها الآن معًا وقد فرغ صندوقنا أخيراً، فلم نكن ندري أنه قد فرغ إلا حين تعرضنا لأزمة جديدة من أزمات الحياة، ولم نجد عواصف ولم نجد رمالاً، ومهما انتظرنا أو تظاهرنا بأن العاصفة قد حلّت، هي في الواقع أخف وطأة من كل ما سبق، ولم يعد لها تأثير مُدمر كذي قبل.

ودعني يا صديقي أهنئ نفسي وإياك؛ لأننا تمكنّا من الصمود أمامه، ألا تذكر حين أخبرتك أنه سينهي علينا قبل أن ينتهي؟ ألا تذكر حين أخبرتك

أنه لن يفرغ أبداً، وأن رماله تتزايد ولا تقل مهما اشتدت بنا العواصف؟ وها نحن الآن، قادرون على التنفس، وقادرون على استكمال السير دون أن تعيقنا تلك الرمال المتطايرة، لقد فرغ صندوق الحزن قبل أن تفرغ أرواحنا من المقاومة، ففي النهاية نحن من قمنا بهزيمته، وليس العكس، وهذا يعد انتصاراً لا يُستهان به.

أعلم أنك ما زلتَ قادراً على الشعور بالحزن تماماً كما أقدر أنا، ولا أعتقد أن الشعور بالحزن يمكن أن يتلاشى من روح الإنسان، ولكن شتّان بين الشعور بالحزن الآن وكل ما شعرنا به مُسبقًا، لم يعد الحزن شبحًا يطاردنا ويهددنا بالنهاية كلما صادفناه، لم تعد أرواحنا ضعيفة إلى الحد الذي يجعله يقضي عليها، ولا أعلم إن كان ذلك بسبب كثرة ما مررنا به، أم أنه بسبب النضج الذي يرتقي بابن آدم على مدار الزمن، ولكن في كلتا الحالتين، ما زالت لنا قلوب تنبض وترغب في الحياة، قلوب صارت أقوى من ذي قبل، ولم تعد تنهار كلما مرَّت بأزمة أو بكابوس طويل.

يا صديقي.. تلك المحنة التي نمر بها الآن وحدها من أثبتت لنا أن صندوق الحزن قد فرغ، فلا تخف، سنمضي معًا دون انهيار ودون استسلام، لا تخف؛ لأننا الآن، وفي تلك اللحظة بالذات صرنا قادرين على هزيمة كل ما هو آتٍ كما قدرنا على هزيمة ذلك الصندوق".

ترفع أصابعها العازفة عن الحروف، ثم تنظر إلى الخلاء، تأخذ نفَسًا عميقًا وتبتسم، كأنما تأخذ قسطًا من الراحة عقب تأكّدها من الانتصار، نشوة

الكتابة تُحييها، وكانت هي بكلماتها تُحيي الكثيرين ممن يعجزون عن التعبير، كانت كلماتها سلاحها الوحيد في مواجهة الدنيا، ولم يخذلها أبداً.

وفي نهاية جلستها تلك أمسكت بقلم مُلقى بجانبها ورسمت بكلماتها على ورقة بيضاء تقول "لا ينقصنا شيء يا صديقي، ما دُمنا قادرين على الكتابة".

عشرون عاماً بعد الثورة

في شهر فبراير/ شباط من عام ٢٠٣١، عائد هو من إحدى الحفلات التي يحضرها أمثاله من كبار رجال الأعمال بالدولة، حفلة في واحد من أرقى الفنادق الموجودة بالقاهرة، وبحضور عدد مُشرف من حيتان المجتمع، سياسيًا واجتماعيًا وماديًا، ومثل تلك الحفلات لم تكن لتكتمل بدونه، فهو رجل الأعمال الكبير الذي لا تغفل أذن عن اسمه، ولا تغفل عين عن شكله المحفوظ، على الرغم من أنه لم يكن يحب الظهور كثيراً في وسائل الإعلام، فإنه كان معروفًا جداً، كما يرددون عنه "سمعته سابقاه"، كان – ككثيرين– معروفًا عنه فساده واستغلال علاقاته وأمواله في تسيير أموره، ولو على حساب المصالح العامة، لا يخشى عواقب التهاون بمصالح الناس، ولا يخجل من قبول الرشى.

فهكذا تسير حياته، وهو على يقين أنه فوق طائلة القانون بكثير، فلم يكن ساذجًا كي يعرض نفسه لأي نوع من المخاطر، ولهذا الغرض كان له

نشاط سياسي معروف في واحد من الأحزاب السياسية، بل إنه كان في وقت ما نائبًا في البرلمان، والحقيقة أن علمه بالسياسة لا يزيد عن حدود معرفة رئيس الجمهورية وعدد قليل من الوزراء، فلم تكن له أي ثقافة سياسية ولا ميول نحوها من الأساس، بل إنه في أعماق نفسه كان كارهًا جداً لكل ما يتعلق بالسياسة، لكن ما باليد حيلة، فلا بد أن تكون له حصانة تحميه من نيران فساده التي حتمًا ستقوم بالتهامه إن لم يكن على دراية جيدة بكيفية ترويضها.

لم يكن كبيراً في السن، بل كان ما زال في مقتبل الأربعينيات من العمر، وعلى الرغم من ذلك استطاع تحقيق إمبراطورية كبيرة هو حاكمها، لديه من الأموال ما يكفي لتسديد ديون مصر، ولديه من العلاقات والمعارف ما يفوق الجيش المصري عدداً، ولم يكن الأمر سوى مصادفة غيَّرت مجرى حياته تمامًا، فهو لم يكن أحد أبناء تلك الأُسر الأرستقراطية العريقة، لكن الحياة ابتسمت له يومًا ما، فقرر هو أن يُبقيها مبتسمة له طوال حياته، ولو على حساب المبادئ التي كان يخسرها واحداً تلو الآخر.

كان اليوم قد سمح لسائقه الخاص بإجازة لمدة يوم واحد؛ لأن زوجته كانت تضع مولودهما الثالث، وفي حاجة ماسّة إلى من يرعاها، فاضطر بذلك إلى أن يقود سيارته بنفسه ذهابًا وإيابًا من هذا الحفل الضخم. ولم يكن ليغير عاداته في مثل تلك الحفلات، فهو ما إن يدخل إلا ويبدأ في الشرب حتى يغيب عن العالم تمامًا، كأنما يهرب دائمًا من شيء بداخله، فلم يكن في الحقيقة مُحبًا لتلك الحفلات، ولا يحب من يرتادون عليها، لا يشعر بانتمائه إليهم، لكنه كان دائمًا يضطر إلى تلبية الدعوة؛ لأن ذلك

سيخدم له مصالح فيما بعد، فلا مجال للرفض، ولذلك كان يحاول أن يبتعد بنفسه عن تلك الأجواء المزدحمة بالنفاق ودخان السجائر الغالية، لم يكن يدّعي أنه مختلف عنهم، أو أنه لا ينافق الكثير مثلهم، لكنه فقط لم يكن مُحبًا لتلك الأجواء، لم يكن قد اعتاد عليها رغم مرور الزمن، فالخمر كانت رفيقته الحسناء في مثل تلك المواقف، يظل يتجرع كأسًا وراء الأخرى إلى أن يحين إذن الانصراف، فيخرج مترنحًا معتمداً على سائقه المسكين الذي يسنده إلى أن يركب سيارته، لكنه اليوم بلا سائق، وبلا سند.

ركب سيارته وبصعوبة بالغة تمكن من تشغيلها، لم يكن يرى الطريق بوضوح، وعقله لم يكن قد عاد من سكرته، فلم يتحرك سوى بضعة كيلومترات بسيارته حتى وجد نفسه فوق أحد الأرصفة داهسًا شخصًا ما لم يكن تبينه بعد، لاحظ وجود أشخاص كثيرين يجتمعون حول سيارته ويصرخون، وأصوات عالية متداخلة كثيرة، كان يجد صعوبة في تمييزها، هو فقط أدرك أنه تسبب في إيذاء أحدهم.

نزل من سيارته بعد أن قاموا بفتح الباب وإجباره على النزول، نظر للشاب بعين تنهكها آثار الخمر، وما إن رآه الشاب ودقق في وجهه المحتشدون حتى تميزت لهم ملامحه وأدركوا مع من يتحدثون، ابتعد البعض وظل الآخرون محدقين في وجهه منتظرين ما سينطق به لسانه بعد هذا الصمت الطويل، لم تكن إصابة الشاب خطيرة، لكنه كان مستلقيًا على ظهره على الأرض والغضب يرسم خطوطه على كل ملامحه.

"عايز كام؟ أنا معنديش وقت أنقلك لمستشفى، أظن انت عارف أنا مين"، قالها ببرود قاتل محدقًا في عيني الشاب، كأنه يلومه أنه قام بتعكير صفو مزاجه في منتصف الليل بعد تجرع هذا العدد البالغ من كؤوس الخمر، فأضاع له تأثيرها في بضع ثوانٍ.

حاول الشاب أن ينهض من مكانه بصعوبة متسنداً على بعض من الواقفين، ونظر في عينيه بتحدٍ أكبر وقال له: "مش عايز حاجة يا باشا، حال البلد دي مش هيتصلح إلا لما نقوم بثورة نشيل بيها اللي ركبونا وسايقين فيها زيكم"، ابتسم رجل الأعمال ابتسامة سخرية ونظر إلى الأرض.

قد كان هذا الرجل الفاسد نفسه يومًا ضمن المحتشدين ضد الظلم والفساد في ميدان التحرير، مرَّ قرابة عشرين عامًا على تلك الثورة التي كان أحد أفرادها، لم يكن صوته لينخفض في وجه الظلم، لم تكن القنابل المُسيلة للدموع أو مدافع الداخلية تثير بداخله أي نوع من أنواع الخوف أو التردد، ظنّ نفسه بطلاً يدافع عن قضية، وأنه حتمًا سيربحها مهما طال الزمان، فهو على حق، والأسطورة دائمًا ما تقول إن الخير يكسب في النهاية على الشر.

أصيب بطلقات عدة في أماكن متفرقة من جسده، فقد أصدقاؤه أبصارهم من جرّاء الطلقات التي كانت تصوب إليهم، ومات أخوه الوحيد متأثراً بجراحه، لكنه كان في كل مرة يعود للميدان وكله حماس أكثر من ذي قبل، كانوا يثيرون غضبه أكثر وأكثر بفعلاتهم الشنيعة تلك، فلم يكن لأحد أن ينسحب بعد أن بدأت المعركة، فالموت كان أهون عليه من التراجع، فقد

سلبوه حريته وصوته وقتلوا أخاه الوحيد، فلم يتبق لديه سوى كرامته ليدافع عنها، وليثأر من كل جرائمهم التي لا تحصى.

وفي ليلة وضحاها تغير النظام، وتغير حال البلاد وظن هو وأمثاله من الثوار أنه ربيع عربي بحق، كما أطلقت عليه وسائل الإعلام، لكن الظلم لم يتزحزح عنهم ولو بمقدار خطوة، والظروف سارت من سيئ إلى أسوأ، تم القبض عليه وتعذيبه، ثم الإفراج عنه مرات ومرات، فَقَد والديه حسرة على أخيه وعلى ما وصل إليه حالهم، فابتعد عن تلك الدنيا التي لم تكتب له ولثورته سوى الشقاء والمذلة، حتى بعد أن ظن أنه قد ربح القضية، ظل مبتعداً عن الدنيا كلها لأعوام كثيرة، لا يرى أحداً ولا يعمل ولا يسمح لشمس بدخول نافذته، استسلم لاكتئاب طويل لم يكن يرى له آخِراً.

وفي نهاية المطاف وجد نفسه بلا إرث يعتمد عليه في تسوية أمور حياته، فاضطر للبحث عن عمل، وتمكن من الحصول على وظيفة في إحدى الشركات، وفي تلك اللحظة قرر أن يكرس حياته في العمل لصالح نفسه ونفسه فقط، فصار يستخدم كفاءته وذكاءه في سبيل الصعود من منصب إلى آخر، حتى وجد نفسه يومًا يمتلك شركة خاصة تحولت إلى إمبراطورية فيما بعد، واستباح كل شيء في سبيل عدم الخسارة مرة أخرى.

ورغم ذلك الثراء كان ما زال يهرب بكل ما أوتي من قوة من تلك الذكريات التي تخبره بحقيقته وبالأحداث التي مر بها، فلم يعد يشعر سوى بالحقد والرغبة في الانتقام من الجميع، وهكذا كان يفعل.

رفع عينيه ببطء ثم حدق في وجه الشاب المكوم على الرصيف أمامه لبضع ثوانٍ، وقال له بنبرة تحذيرية ساخرة يملؤها الأسى: "العب غيرها، كان غيرك أشطر"، ثم ركب سيارته وانصرف، حزينًا على تلك الخمر التي ضاع تأثيرها هباءً.

عم يونس

تحت شمس الصعيد وسُمرة نيله المنعكسة على بشرة أفراده، كان يسكن بيتًا ملونًا بروح الحياة في قرية صغيرة بأسوان، مُغلقة على سكانها القلائل الذين يحفظون ملامح بعضهم البعض عن ظهر قلب، لقلة عددهم، والألفة التي صارت تربط بينهم.

هنا يُقيم "عم يونس"، تجده في يوم عادي جداً من أيامه، يقف في مكان "أكل عيشه" المليء بصخب التجار والسياح والزبائن، ابتسامته تعتلي سُمرة وجهه، وصوته الجهوري يملأ آذان كل من في السوق من حوله، يتحدث مع هذا ويضحك مع ذاك ولا يشغل باله بأكثر من تمضية يوم سعيد كبقية أيامه، فبينما يكاد كل بائع يقف أمام محل جاره ليخطف من أمامه الزبائن، كان "عم يونس" لا يُردد سوى "الرزق على الله يا اخواننا"، تعقبها بسمة راضية، كان مُختلفًا منشغلاً بأمور أخرى، وقد كان الجميع يعرف عنه اختلافه.

فهو رجل صاحب عالمٍ خاص جداً، صاحب بال مرتاح وقلب راضٍ إلى أبعد الحدود، يحب الحياة بكل ما فيها من صخب وحركة وسرعة، يعشق كل ما فيها من ألوان وأصوات ومعالم، خاصة حينما يتعلق الأمر بأسوان، أو الصعيد بشكل عام، فهو لا يشعر بالانتماء إلا لذلك المكان، ولم ولن يفكر في مغادرته أبداً، وكيف له أن يغادر عالمه وروحه التي تسكن فيه، والتي ستأبى أن ترحل معه إذا انتوى الرحيل؟ فكان إذا حدَّثه أحد عن فكرة الاغتراب والسعي وراء لقمة العيش، لم يسمع في أذنيه سوى صوت "محمد منير"، وهو يقول: "قلبي ضايع من يلاقيه لي باينلي نسيته حدا أهلي.."، بلهجته الصعيدية القوية في أغنيته "يونس".

كان قد تعهد لنفسه أنه لن يفعل ذلك بقلبه أبداً وما الذي يدفعه للرحيل؟ فقد كان مقتنعًا جداً أن كل ما نقوم به -نحن البشر- من أفعال وتصرفات ما هو إلا سعيًا وراء السعادة، وهو قد وجد ما هو أكثر من السعادة، وجد الرضا والحرية ووجد عالمه الخاص الذي يغوص في أعماقه كلما طلعت شمس أسوان، وكلما اندفع صوت أغانيه التي يهوى التمايل والتناغم معها، فكلما تدفقت على أسماعه ألحان صعيدية الطابع أو أغنية من أغنيات "محمد منير" في السوق التي يقضي بها أغلب يومه، أو في أي مكان آخر هو فيه، تجده يغني ويرقص ويتمايل بلا أي حساب لبشر ولا أشياء ولا تقاليد، ولا أي قوى كونية تستطيع أن تمنعه من تلك السعادة التي يخلقها لنفسه كلما أتيحت له الفرصة، فتراه فجأة مبتسمًا ابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء التي تتناقض مع بشرته، وتنتشر معالم السعادة على كل ملامح وجهه السمراء المصرية.. ثم تسمعه يُغني كأنه واقف على مسرح

أمام جمهور عريض جاء فقط ليسمعه ويرى حركاته وحكاياته وتمايله مع ألحانه ومع حياته البسيطة، إنما هو نفسه فكان حين يدخل عالم الألحان لا يشعر بجمهور ولا بالناس ولا بطبيعة الكون من حوله، يشعر فقط أن هذا الفضاء الواسع خُلق لأجله، ولأجله هو فقط، وكأن الكرة الأرضية لا تحمل شخصاً سواه، فيتملكه شعور بالغ بالتسامح والرضا تجاه كل ما فعلته به دُنياه وكأنه خُلق فقط ليسعد ويعيش.

يتجمهر حوله التجار والزبائن ليشهدوا حالة النشوة التي تتمكن من عم "يونس" تمكناً تاماً حين يريد أن يبتعد قليلاً بقلبه وعقله وحواسه عن العالم الواقعي الذي نعيشه، والذي لا يمنحه تلك الحالة المفرطة من السعادة والرضا التي يمنحها له عالمه هو.

يحسدونه أحياناً، ويسخرون منه أحياناً أخرى، لكنهم في كل حال كانوا في أعماقهم يتمنون أن يصلوا ولو لنصف تلك السعادة التي تملأ قلبه، والتي تفيض من روحه على كل من هم حوله، والجميل في الأمر أنه لم يشعر أبداً بالخجل أو الإحراج من التفاعل مع الألحان والأغنيات، لم يكن يعطي الحياة أكثر من حجمها الحقيقي الذي كان في نظره بسيطاً للغاية، غير مستحق للتعقيد والتكلّف.

فما المُحرج في أن يُغني ويرقص ويَسعَد تلك السعادة البسيطة؟! فقد كان عم "يونس" مقتنعاً أن واحداً من أكبر إنجازاتنا كبشر أن نعرف جيداً الطريق لسعادتنا، حتى ولو كان هذا الطريق بسيطاً لا تعقيد فيه.

وكان يرى أن من يُقرن السعادة بكل ما هو مُعقد وضخم اعتقاداً منه أن لا قيمة لتلك الأشياء البسيطة التي تدخل حياتنا أو ندخل عالمها، فهو مُخطئ ومُفتقد للكثير من المتعة والكثير من "روح الحياة".

لوعاد

رأيته جالسـًا على دكةٍ خشبية موضوعة في ناحية من الرصيف، لم أصدق في البداية، فكيف له أن يعود وقد مضى على رحيله قرابة ثلاثين عامـًا! لكنني لم أكترث كثيراً بحسابات المنطق وفكرة أن عودته أكثر من مستحيلة، فذهبت إليه مسرعة أتفقد ملامح وجهه التي لم أرَها يومـًا سوى على أغلفة الكتب وبعض الصور على الإنترنت، فقد رحل قبل مجيئي إلى الدنيا من الأساس، جلست إلى جواره فلم ينتبه إلى وجودي من الأساس، ووجدته شارداً متأملاً كل مَن يمر من البشر أمامه أو حتى من الحيوانات بنظرة فاحصة دقيقة، كأنما يحاول أن يجيب لنفسه على بعض الأسئلة التي تدور في ذهنه.

وكانت تلك عادته كما قرأت في كتبه من قبل، فله عقل لا يتوقف عن التفكير، فهكذا الأدباء، وهو لم يكن أديبـًا عاديـًا يمتهن الكتابة لأجل الكسب، بل كان أديبـًا؛ لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك، حتى ولو أراد.. كان "توفيق الحكيم".

لم أرُد تضييع تلك الفرصة التي حتماً لن تتكرر مجدداً، فوجهت إليه تحية الصباح؛ لعله يسمع صوتي ويفيق من شروده، التفت إليّ ببطء وهو متكئ على عصاه، ونظر إليَّ من فوق عدسات نظارته الطبية ورد إليّ التحية بود بالغ، وكأنما اشتاق للحديث إلى البشر، ولكي أزيل عني كل شك، سألته إن كان حقاً الأديب "توفيق الحكيم". فتعجَّب واعتدل في جلسته قبل ان يسألني "وهل تعرفينني؟ هل قرأتِ كتاباً يحمل اسمي؟"، ثم أخذنا حديث طويل بعد أن أكدت له معرفتي به وبكتبه، وبأنني تمنيت أن أقابله يوماً؛ كي أحظى بحديث معه، ولو كان قصيراً.

قال لي إنه بقي هنا جالساً قرابة ساعتين يتأمل وجوه الناس الذين كثيراً ما تغيروا منذ أن رحل عنهم، صار مستغرباً طريقة ردائهم ولهجتهم والألفاظ التي صاروا يستعملونها، والتي لا يجد لها وجوداً في المعاجم العربية ولا حتى الأجنبية.

قال لي إن الكثيرين من الشباب والفتيات جلسوا بجانبه ولم يتعرف عليه أحد، وجد في آذانهم أصواتاً عالية لا يستطيع حتى أن يسميها ألحاناً كتلك التي كان يسمعها لبيتهوفن، إنما دبدبات عالية تزعج حتى غير المستمع، ولم يجد في أيديهم كتاباً أو نظرات إلى الطبيعة يتأملونها، لم يجد سوى شاشات مضيئة لا تكف عن الرنين، وأصابع صارت مرنة في الضغط على الحروف، كأنما هي أصابع عازف البيانو.

أخبرته أن الزمن قد تغير كثيراً فقد غاب عنّا قرابة الثلاثين عاماً، فكيف له أن يعود ويجد الوضع كما كان عليه؟ فسألني: وهل يا بنيتي للأدباء

المعاصرين مكان وسط الناس؟ هل هم أصحاب تأثير؟ هل ما زال هناك قرّاء مولعون بالكتب والصفحات؟ شعرت في لحظة أن إجابتي لن تكون شافية أبداً، وأنه لن يتخيل مدى انحطاط الأدب في الزمن الذي نعيشه الآن، فقررت أن آخذه في جولة إلى بائع كتب؛ ليرى بنفسه ما صار يُطبع على الصفحات.

تمشينا معًا إلى أن وصلنا عند بائع كتب قديم مفترشًا بضاعته على أحد الأرصفة، ورأى ضيفي أحد كتبه القديمة ذات الصفحات الصفراء محشوراً وسط مئات من الأغلفة الملونة والأسماء التي لم يكن يعلم عنها شيئًا، فقلت له: التقط ما شئت من الكتب، وأخبرني أنت هل ما زال هناك أدب؟ أم أن الأدب رحل مع رحيلكم، فأخذ يتصفح واحداً من الكتب المكتوبة بقلم أحد شباب التواصل الاجتماعي الذين صارت لهم ضجة عالية، لم يستغرق في القراءة كثيراً ونظر إليّ مشدوهًا محملقًا في بائع الكتب الذي تجرأ على بيع تلك الصفحات، وفي اللحظة نفسها وجد مجموعة أصدقاء آتين نحو هذا البائع الذي لم يقترب منه أحد منذ يومين، أخذوا يمسكون بكتاب وراء الثاني، ولمعت عينا ضيفي حين وجد إحداهن تمسك بكتابه وتقلب في صفحاته، ثم وضعته جانبًا هامسة لصديقاتها بنبرة ضاحكة "لست مهتمة بقراءة كلام معقد كهذا"، ثم أعادته إلى حيث كان، وقررت شراء الكتاب الذي تصفحه ضيفي منذ دقائق.

طلب منّي أن نرحل ففعلنا، أخبرني في رحلة العودة أنه كثيراً ما كان يشعر بالحزن نحو حال الأدب في مصر، وأن القرّاء المصريين ليسوا أولئك

المتفاعلين والمحبين حقًا لكُتابهم، بل إنهم لا يعيرون للكتابة وقتًا أو مالاً، إنها ليست في أولوياتهم، وازداد حزنه بتجربة اليوم أكثر فأكثر.

أردت التخفيف عنه قليلاً كي لا يعود من حيث أتى لاعنًا ذلك القدر الذي أرسله إلينا مرة أخرى، أخبرته أن الأدب لن يموت ولو انتشر أمثال هؤلاء، فكتبه هو وأمثاله من الأدباء الحقيقيين ما زالت تملأ مكتبات المولعين بالقراءة والأدب، وأن كلماته حية أبد الدهر ولو قرأها القليل، أخبرته أن هذا المجتمع ما زال به بعض العقول المفكرة والمستنيرة، وأن انحطاط الأدب يعود لمبررات اجتماعية كثيرة هي التي أدت بنا إلى تلك الحالة.

ربت على كتفي وابتسم ثم أبدى إعجابه بكلامي وبرحلته التي كنت مرشدتها، أخبرني أنه سعد بلقائي وبما قرأه لي من مقالات بينما نحن جالسان، أوصاني بعدم التخلي عن الكتابة ما حييت، والأهم عدم التخلي عن القراءة أبداً، أخبرني أن الدنيا لا تزال بخير ما دام فيها شباب مُفكر ومكافح رغم ما نمر به من ظروف.

علمت أن ساعة الوداع قد أتت، فنظرت إلى وجهه العجوز طويلاً؛ لأنني حتمًا سأفتقده كثيراً، طلبت منه أن يعيد الزيارة ووعدني أن يفعل، وكانت آخر جملة قالها لي: "الأديب يا بنيتي شخص مسؤول، تقع على عاتقه مسؤولية كبيرة دون أن يختار، فنحن نولد كي نصير أدباء كما تولد النحلة كي تنتج عسلاً، لا النحلة تختار ولا الأديب يختار، لكنها هِبة، فأحسنِ استخدامها وارتقِ بعقول هؤلاء، لا تهبطي بها إلى الوحل".

ذنب لم يُرتكب

فتح سيارته بعدما سقطت منه المفاتيح للمرة الثانية وألقى بنفسه على الكرسي محاولاً استيعاب ما يجري حوله، ألقى المفاتيح على الكرسي الذي بجانبه بعنفٍ مقصود ثم أسند رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه حتى أصابه دوارٌ خفيف وشعر بأنفاسه تختنق.

فتح الزر الأول من قميصه وأخذ يمر بكفيه على وجهه ذهابًا وإيابًا، محاولاً إحياء حواسه التي ماتت منذ قليل، "هي ليست بصدفة إنما هي رسالة" كان يردد تلك العبارة في ذهنه حتى سيطرت عليه تمامًا وهدأت أنفاسه بعض الشيء، واستسلم لتفكير عميق..

حين دخلتْ عليه العيادة كانت كبقية المرضى الذين اعتاد على رؤيتهم، وجهها شاحب حزين، تغتصب ابتسامة تأبي الخضوع لوجهها، عيناها محاطتان بهالة سوداء كثيفة تكشف عن بكائها وسهرها الليالي الماضية، لم يعر انتباهًا حقيقيًا لمظهرها؛ لأنه ليس بمظهر مختلف، سلمت عليه بيد مرتجفة مترددة، ثم جلست صامتة.

بينما كان هو متوقعاً لما سوف يسمعه من قصص وأحاديث، إما أنها تعرضت لحادث ما يؤثر عليها إلى الآن، أو أن حبيبها تركها قبل الزفاف ببضعة أيام، أو فقدت أحد والديها ولم تستطع الخروج من لحظة الجنازة إلى الآن، لقد اعتاد على سماع مثل تلك القصص وحفظ جيداً العلاج المناسب لكل منهم، بدأ هو كطبيب نفسي يمارس مهنته حتى يجعلها تتكلم وتخلع عن نفسها ثوب الخوف والتردد، وكان أول ما نطقت به "لقد حُرمت من الإنجاب".. ساد صمت ثقيل بينهما.

هي محاطة باكتئابها الذي أتت به، وهو لا يدري إن كان ما سمعه منها حقيقياً أم أنه سمع شيئاً آخر، رفع عينيه ببطء وضعف عن أوراقه التي كانت تحوي بياناتها، نظر لها راجياً أن تقول له إن ما سمعه ليس بصحيح، لكنها كررتها مرة أخرى بنفس النبرة والصوت "لقد حُرمت من الإنجاب".. نظر لها طويلاً بلا أي كلمة، فهو لا يدري ماذا يجب عليه أن يقول، إنه لم يدرس في الطب النفسي كيفية الاعتذار عن علاج حالة كحالته، كيف له أن يعالجها من اكتئاب أصابها بسبب عدم الإنجاب وهو يعتقد أنه مصاب بنفس الشيء، بل أسوأ.

شعر في تلك اللحظة أنه هو الذي يحتاج منها العلاج والدواء وليس هي، وقفزت أمام عينيه صورته يوم عَلِم بأنه رُزق بطفل معاق! رأى جزعه وغضبه واعتراضه، رأى عصبيته ويأسه وكراهيته لكل ما حوله، رأى كل انفعالاته الأولى التي ما لبثت أن تحولت إلى حزن عميق دفين وابتعاد عن كل الحياة، رأى عدم عنايته بطفله وعدم رغبته فيه، وتذكر معاملته لزوجته التي أخذت نصيباً لا يُستهان به من الإهمال وعدم التقدير. تذكر حين كان

يناجي الله ويقول له "لو أنك حرمتني من الإنجاب لكان أهون عليّ من قضاء حياتي في تربية طفل معاق".

خلع نظارته الطبية وقام من على كرسيه واقترب من مقعدها قليلاً، نظر في عينيها بقوة وثبات لا يخلوانِ من الرجاء والانتظار، وسألها، أكنتِ تفضلين إنجاب طفل معاق على عدم الإنجاب؟! كان ينتظر منها إجابة تخمد ثورة ضميره وتؤكد له أنه محق في كل غضبه وحزنه وعدم عنايته بطفله، فما ذنبه هو وماذا فعل بحياته كي يُبتلى بطفل معاق؟ ظل ينظر لها راجيـًا ألا تخذله إجابتها وكأنما مجلسهما انقلب إلى النقيض، وأنه هو المريض ينتظر منها إجابة تشفيه.

ارتسمت ابتسامة مكبلة بالوجع على وجهها وسألته كيف له أن يقارن هذا بذاك، كيف له _وهو الطبيب_ أن يسألها سؤالاً تافهـًا كهذا، وهي التي لا ترجو من الدنيا سوى طفلٍ، حتى وإن كان معاقـًا، هي التي تتمنى أن تشعر بحركته في أحشائها وأن تنتظره لمدة تسعة أشهر حتى ولو علمت أنه معاق، فسيزيدها هذا حبـًا له.

لأنها ستعلم أن حاجته إليها ستكون أكبر وأكبر، ستحدثه كل يوم وهو في بطنها إلى أن تأتي لحظة ولادته، ستضمه بين ذراعيها وتعده أنها لن تهمله أبداً منذ تلك اللحظة، سترعاه وتحميه وتعلمه، ستجعله لا يشعر بالنقص أبداً لأنها جواره، يكفيها أنها تراه وتسمعه، تتحدث إليه وترعاه وتضمه إليها، لن تظلمه يومـًا بذنب لم يرتكبه! أن يكون لديها طفل معاق يحبها ويحتاج إليها أهون عليها بكثير من حرمانها الأمومة إلى الأبد!

كان يرتجف ومشاعره مضطربة، أشعل كلامها ثورة ضميره أكثر فأكثر، كان يريد أن يُسكتها، أن يضع يده على فمها ليجعلها تصمت، وفي الوقت نفسه يريدها أن تعذب ضميره أكثر لتحييه بعد ممات طويل، إنه لم يرضَ يومًا عن نفسه منذ وُلد هذا الطفل، لكنه اعتاد خلق الأعذار والمبررات لجزعه وإهماله، حتى تمكن من وضع نفسه تحت مسمى الضحية وطفله البريء هو الجاني! شعر بحاجة ماسة إلى الوحدة، فطلب منها زيارته بعد مرور ثلاثة أيام، وما إن تركت العيادة حتى قام بفتح كل النوافذ والأبواب كأنه يختنق، ورغم ذلك لم يُرِحه البقاء في العيادة فنزل إلى سيارته.

كان قد استغرق في هذا الوضع ما لا يقل عن ساعتين، اضطراب وندم وشعور بائس بقلة الحيلة، أخذ يهرب من دموعه التي أبت التوقف، وأشعل سيجارته لينجو بنفسه من دوامات التفكير، أدار محرك سيارته، واتجه إلى منزله.. لم يجلب معه هدية لطفله ولا زهور لزوجته، معه فقط اقتناع تام أنه "لن يظلمهما مجدداً بذنب لم يرتكباه" وهذا سيكفي..

منذ سبعة أشهر

أفاق من نومه اليقظ بعد أن فشل في آخر محاولة لإسكات عقله الثائر، فقرر أن يصرف النظر عن أمر ساعات النوم التي فارقته منذ زمن لم يعد يحسبه.

في الواقع هو لم يكن يملك جواباً لسؤال: "ماذا يدور في بالك؟" فالإجابة الوحيدة هي الصمت التام والشرود، ولم يكن يتظاهر بتلك اللامبالاة، بل إنها لم تكن لا مبالاة من الأساس، لكنه كان عاجزاً حقاً عن التعبير عما يدور في ذهنه، ثمة أفكار تدور في خاطره لا أول لها ولا آخر، فصارت متداخلة ومتشابكة يصعب تمييز إحداها عن الأخرى، عدا فكرة واحدة كانت تسيطر على شبكة أفكاره تلك، فكرة واحدة ما زال يستطيع تمييزها من بين ملايين الأفكار التي تسري في ذهنه كالنمل.. الانتحار.

وفي هذا الصباح بالذات لم يعد قادراً على طرد هذا الهاجس من رأسه، فهو حتى لا يدري ما الذي دفعه للانتظار حتى تلك اللحظة، لم تكن لديه أية مبررات تمثل قيمة بالنسبة إليه، أخرج المسدس الموضوع في خزينته ووضعه على المكتب في مستوى نظره، بمنتهى الهدوء جلس على حافة

فراشة، وأحنى ظهره قليلاً، وأسند رأسه على يديه، متأملاً ذلك السبيل الذي سينهي له حياته كيفما أراد.

لم يكن جبانًا أو ضعيفًا في تلك اللحظة، ولم يكن كذلك أبداً، فكيف لقائد كتيبة في الجيش أن يكون جبانًا؟! كيف لبطلٍ محارب أن يكون متخاذلاً؟! فكلمة التخاذل تلك لم يكن لها وجود في قاموسه من الأساس.

ما زال يذكر تلك الأيام بل السنوات التي قضاها في الحرب، سنوات استنزفت عمره وصحته وشبابه، كان يعتقد أنه يصنع مجداً، وكان مؤمنًا بذلك حد الجنون، فلم تكن ترى حماسة كتلك التي تراها في عينيه وفي صوته وأوامره، على الرغم من أن الهزيمة كانت بازغة أمام الجميع بزوغ الشمس، ولم يؤثر ذلك يومًا على إيمانه بالنصر، فالتخلي عن الإيمان لم يكن يعني سوى اليأس، وما اليأس سوى أقرب سبيل إلى الهزيمة لا محالة، وهو بطل، والأبطال لا يُهزمون.

كانت كتيبته، بل وجيشه كله يتقلص كل ساعة، الجثث والدماء والطلقات النارية والمدافع لا تهدأ ولا تكل، ورغم أن أغلب أصوات وطلقات المدافع كانت من الجيش المُقاتل، فإنها كانت تزيده حماسة وإصراراً، كأنما تحاربه هو شخصيًا، تحاربه وحده.

كلما أشار عليه أحدهم بأن الانسحاب أسلم وسيلة للحفاظ على ما تبقى من أرواح، لم يكن حتى يسمع تلك الكلمات، فكانت تعني بالنسبة له هزيمة وتنازلاً، والشجعان لا يتنازلون عن كرامتهم ما داموا يتنفسون، فقد كان مقرراً في قرارة نفسه أنه سيظل في هذا الموقع وفي تلك الحروب

الطويلة، حتى ولو بقي وحيداً، فإما أن يعود منتصراً أو شهيداً، أما عدا ذلك فليس في حسبانه من الأساس.. وقد كان.

ظل متمسكًا بالبقاء حتى صارت الهزيمة شبحًا يهدده هو شخصيًا، الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، ولم يعد حتى لديه من البشر مَن يقاتل معهم أو لأجلهم، فلم يكن له إلا أن يتلقى أمراً بإعلان الهزيمة والانسحاب وعودة الأفراد القلائل الذين ما زالوا أحياء يرزقون.. وماذا هو بفاعل أمام أوامر قياداته العليا؟ وتلك اللحظة فقط كانت نهاية حياته فعليًا، فلأي شيء سيعود؟ لمَن ولماذا؟ ولِمَ لم ينل الشهادة مثلما نالوها، بدلاً من عودته منكسراً مهزومًا، بلا كتيبة، وبلا نصر، وبلا حياة؟

وعلى الرغم من استقباله ومَن معه كأبطال حرب شجعان، فإنه لم يكن يشعر بأي شيء تجاه هذا الاستقبال الحافل، لم يكن تعيسًا ولم يكن سعيداً، كان فاقداً لكل شعور، وكأنه ما زال هناك في موقع المعركة لم يعد مثلما عادوا، لم يكن حتى مشتاقًا لزوجته وأولاده، كان سيشتاق إليهم لو لم يكن عايش كل ما عايشه في تلك الفترة العصيبة الدامية التي مرّ بها، لم يرَ أحداً منهم منذ سنوات فتغيرت ملامحهم وتغيرت حيواتهم، وصار هو كطفل وليد يتعرف على معالم الحياة من جديد.

كانوا يعتقدون أنه يعاني من آلام جسدية جراء ما لقيه في تلك السنوات، وأنه فقط في حاجة إلى بعض الوقت والرعاية؛ كي يتعافى ويعود من جديد، لكن الأمر لم يكن كذلك أبداً، ولم تكن لديه الرغبة أو القدرة في مشاركتهم ما يدور بداخله، فقد انتهى وصار رماداً، فكيف لرماد أن يعود إلى أصله من جديد؟

مرّ على عودته سبعة أشهر، سبعة أشهر وهو يصارع من أجل البقاء لسبب لا يفهمه، وأسرته تصارع من أجل تقبُّل ما هو عليه، لا يغادر غرفته إلا في أضيق الحدود، لا ينام إلا ساعات قليلة جداً فاقداً شهيته للطعام وللناس، وعازفًا عن الحياة كلها، ولم يكن أحد مستوعبًا ما يمر به، فقليل ما يستوعب البشر آلام الآخرين المحبوسة بين ضلوعهم.

لكنه الآن، وفي تلك اللحظة بالذات، شعر بالسذاجة، وأن مقاومته لرغبة الموت طوال تلك الفكرة كانت عبثًا، فهو حتمًا لن ينتظر حتى يأتيه الموت سالبًا إياه ما تبقى من فتات حياته دون إرادته، فهو البطل ولن ينهي حياته سوى قراره وضغطة إصبعه على الزناد، اعتدل في جلسته قليلاً ثم قرر أن يأخذ جولة في منزله الفارغ من البشر المشغولين بأمور حياتهم وأعمالهم ودراساتهم، لم يكن يتجول في منزله سوى للبحث عن مبرر واحد يجعله يتشبث بالحياة، لكنه لم يجد.

كل ما كان يدور في باله في تلك اللحظة أنه يريد تخليص نفسه وتخليصهم من هذا العبء الذي أصبح يمثله، دخل غرفته مرة أخرى، وجد الدموع تسيل من عينيه دون حتى أن يلحظ، أمسك المسدس بيده ووقع نظره على

صورته بالزي الميري التي كانت موضوعة أمامه، بحركة لا إرادية قام بأداء التحية العسكرية، ولأول مرة منذ سنوات ابتسم ابتسامة ظلت على وجهه بضع ثوانٍ.. أغمض عينيه، وضع المسدس في جهة رأسه، وبيد قوية ثابتة لم تعترِها رعشة واحدة، ضغط على الزناد بقوة.. وانتهى كل شيء، وقد كان منتهيًا بالفعل منذ سبعة أشهر.

ثم قالت . .

بينما كان يقص لي "أفلاطون" آرائه السياسية وكيف أنه مُعادٍ للديموقراطية، وأن الدولة القوية في نظره هي الدولة التي يحكمها الفلاسفة المتفرغين تماماً لإدارة شؤون البلاد، كانت هي تُعدل من أحمر الشفاة الذي يزين شفتيها، ثم تُبعد الخصلة العنيدة التي تطايرت من شعرها المموج الغزير الذي كان يمحي أي أثر متبقٍ لبراءتها. كان جمالها بشكل عام ينم عن جمال متوحش عنيف، جمال صخب مصطنع.

التفتت لي في تكبر واضح، ثم قالت لي: كفاكِ "أفلاطون" هذا الذي يعبث برأسك.

فقلت لها: ولماذا تظنين أن "أفلاطون" يعبث برأسي؟

قالت: إنك تضيعين أوقاتك كلها في قراءة مثل تلك الكتب، أهذا كل ما يشغلك في الحياة؟

قلت: ولمَ لا؟

قالت: بم تفيدك الفلسفة؟ هي مضيعة للوقت لا محالة، إنك حتى لا تستمعين بوقتك كما نستمتع نحن!

قلت: ومن أدراكِ أن الفلسفة والقراءة ليست بمتع عقلية، ربما تجهلين أنتِ مدى متعتها وفائدتها!

قالت: المتعة هي أن تمتلئ خزانتك بمختلف أنواع الماركات العالمية، أن تصبح لديكِ كل مساحيق التجميل التي ترينها في الإعلانات، المتعة هي أن تقضي أوقاتك تمرحين وتعبين جوفك من صخب الحياة، لا تمضينها كلها بين الصفحات التي تأكل عقلك وتستنزف وقتك بلا جدوى.

قلت لها في حدة: إن المتعة الحقيقية هي أن تمتلئ مكتبتك بكتب "توفيق الحكيم" و "ديكارت" و "روسو" و "يوسف إدريس"، وأن تمضِ أوقاتك بين حقول الفكر تمرحين بين فكرة وأخرى إلى أن يتشبع عقلك تمامًا بالفكر، المتع الحقيقية هي أن تحلق روحك في أفقٍ بعيدة وجديدة تأخذك إلى دنيا مختلفة عن ذلك الواقع الممل الذي نعيشه كل ثانية، الصفحات لا تأكل العقل، إنما تُغذيه وتجعل منه عضواً ذا قيمة!

قالت لي: ألا ترغبين في الارتباط والزواج من شخص مناسب؟ هل تظنين أنك ستصلين إلى ذلك الشخص هكذا بدون أي جهد؟

قلت: وما هو نوع الجهد الذي تقصدينه؟

قالت: بعض من المرح ومساحيق التجميل، بعض من الدلال.. أنوثتك هي التي ستجبله وليس "أفلاطون" الذي بيدك!

قلت: إنني لا أبالي بمن يجعل مظهري أول همه، إنني أرغب في علاقة تقوم على جوهر أعمق وأكثر تعقيداً من مظهري الخارجي. مساحيق التجميل سرعان ما تزول عن وجهي، لكن الفكر الذي أسقيه لعقلي لن يزول مهما طال الزمان، بل سيزداد تأصلاً وكثافة بمرور الزمن، إنني لا أرغب في محو أنوثتي والتبري منها، إن حب الجمال فطرة في كل أنثى، وإنني أحب أن أبدو بمظهر جميل، أحب أن أضع بعض من مساحيق التجميل أحيانًا، أحب أن أنعم بحياة مرحة وبعض من العبث واللهو، لكنني أحب أكثر أن تبدو روحي بمظهر جميل، أحب أن يكون لي عقلاً وزنه كوزن الكُتب والمعارف التي نهل مائها وأستنشق عبيرها. أحب أن أجد ذلك الشخص الذي ينجذب لروحي وفكري ولا ينجذب فقط لمظهري، لذلك، فهؤلاء المهتمون بأنواع مساحيق التجميل التي أضعها والماركات التي أرتديها، صدقيني إنهم ليسوا في اعتباري من الأساس.

قالت: ستقضين حياتك في عزلة وسط كتبك وأفكارك، سترين.

قلت: وهل تظنين أن ذلك عقابًا؟ فإنني في حاجة إلى عشرة أعمار فوق عمري كي انتهي من ربع محيط المعرفة الذي يغمرنا، وأن المعرفة لمتعة تفوق متعة الاختلاط بالبشر آلاف المرات.

قالت: أنا مشفقة عليكِ من نفسكِ الموهومة.

قلت لها: بل أنا المشفقة عليكِ، مشفقة عليك من أكاذيب الدنيا، ولهوها الذي أصبح شغلك الشاغل. مشفقة عليك من أوهامك التي جعلتك تضعين مظهرك الخارجي نصب عينيك وتدفنين عقلك في أعمق حفرة. إنني مشفقة عليكِ لأنك حتى حُرِمتِ الفضول الذي يجعل الناس تفتش الكُتب والمعارف، لعلها تجد ما يُشبع فضولها ورغبتها في المعرفة. مشفقة عليك لأنك تجرأتِ على "أفلاطون" واتهمتيه أنه يعبث برأسي، بينما العبث كله لا يعرف حدوداً غير حدود عقلك.

نظرت لي نظرة باردة لا تعبير فيها، ولم تتكلم.. نظرت إلى "جمهورية أفلاطون" باحتقار واستهزاء ثم انصرفت، آخذة معها أفكارها التي كانت تمتص الأكسجين من الجو.

عند مفترق الطرق

الوقت، لا شيء سوى عامل الوقت هو الذي دبر للأمر كله من حيث ابتدى وحتى انتهى، وهو الذي رفض تدخل أي طرف آخر في القصة، الوقت هو الراوي الوحيد للحكاية، وهو صانع أحداثها منذ اللحظة الأولى وحتى انتهى كل شيء.. أو ربما أنه لم ينته، لا أحد يدري، فهو ما زال ينسج من القصة خيوطًا جديدة، كأنه لا يرغب في إنهائها أبداً. أو ربما لأن النهاية لم تعجبه، فرغب في إعادة نسج أحداثها، أو ربما أيضًا أنه رغب في كتابة فصل جديد لتلك القصة، هل هناك متسع لفصل جديد من الأساس؟

منذ عام أو أكثر التقيا وافترقا، هكذا بسلاسة ويُسر تمامًا كسلاسة شروق الشمس وغروبها كل يوم، أمر طبيعي جداً لا إدهاش فيه ولا غرابة. كأن لقائهما وفراقهما أمران طبيعيان كان لا بد لهما أن يحدثا، وأن يتركا أثرهما في حياة كل منهما. أو ربما حياة واحد منهما على الأقل، فكل طرف منهما يظن أن الطرف الآخر منهمكًا في الحياة وأنه يعيش وحده سجينًا في تلك الحكاية إلى الأبد. ولو كان الوقت قد تأخر أو تقدم قليلاً ولو لبضعة أشهر

فقط، لاختلف مجرى الأحداث جميعها. ربما أنهم لم يتقابلا، أو ربما أنهما تمكنا من تخطي كل العواقب التي ستمر بطريقهم دون خلل في علاقتهما، ربما كانا استطاعا صنع شيء عظيم معًا، لكن الوقت لم يرغب في ذلك.

فقد كُتب عليهما اللقاء في الوقت الذي كان كل واحد منهما يعيش في شخصية لا تمت له بصلة، ألا يحدث أن يلبس المرء ثوب شخصية لا علاقة له بها؟ ألا يحدث أن يصنع الغم والحزن هالة من الكآبة والضيق تضم الشخص بين أكنافها فيصبح غريبًا حتى عن نفسه، يعش حياة شخصٍ آخر ويتصرف تصرفات شخصٍ آخر. هذا تمامًا ما كان يحدث لكليهما، لم يكن أحد منهما في وضعٍ يسمح له أن يلتقِ بآخر ويصنع معه حكاية طويلة الأمد. فإذا كان المرء غريبًا عن نفسه، فكيف سيبدو أمام الناس؟ كيف له أن يتعامل بحكمة وهو محطمٌ تمامًا من الداخل، يحاول جمع أشلاء نفسه ولا يستطيع، كيف لقلبه أن يفسح المجال لشخص آخر وهو حتى غير قادر على إفساح المجال لحب نفسه، كيف لشخص أن يتحمل وجود آخر وهو لا يدري حقًا ما إذا كان هو نفسه موجوداً أم أنه قد انتهى منذ زمن سحيق!

كلاهما كان يبحث في الآخر عن إصلاح نفسه وعن الأجزاء الناقصة في روحه؛ كي يصنع منها صورة كاملة، كلاهما كان ينتظر من الآخر أن يعيده إلى صوابه ويعيد بناءه من جديد، وهل يمكن لخراب أن يُعمِر؟ هل يمكن لميت أن يمنح حياة؟ حاولا مرات ومرات، لكن الحق أن وجودهما معًا جعل منهما كتلة من الحُطام التي لا تصلح لأي شيء، فإما أن يفترقا

ويحاول كل منهما إصلاح نفسه وحيداً، وإما ان يغرقا سويًا في تلك الأطلال، لأن أحدهما حتمًا سيجذب الآخر إلى المنتهى، حيث لا مخرج ولا منفذ ولا حياة.

وافترقا، افترقا وأحدهما لم يعرف عن الآخر شيئًا يُذكر، لأن الذين التقيا وافترقا أشخاصًا آخرين غيرهم، أشخاصًا لم يمتلكوا المقدرة على العطاء، ولكنهم امتلكوا القدرة على حسم قرار إنهاء كل شيء في محاولة جدية لإيجاد أنفسهم الحقيقية. ومضى كل منهما في طريقه، ونسج الزمن أحداثه، وتناسى كل منهما تلك الذكرى التي لا يمكن اعتبارها سعيدة ولا يمكن اعتبارها حزينة، لكنها حفرت أحداثًا لن تُمحى من ذاكراتهم.

وظنّ كل منهما أن أحداث الحكاية انتهت عند ذلك الحد، لكن بعد أكثر من عام، قرر القدر ذاته الذي أحال حكايتهم كلها إلى قصة مؤلمة أن يعبث بهما مرة أخرى، كأنه لم يكتف بما سببه لهم من أذى وإجهاد، فقرر فجأة أن يجمع بينهما للمرة الثانية دون أن يدرِ أحد منهما، فأصبح كليهما يعمل في نفس الحي، في نفس الشارع، ولا يفصل بينهما سوى مفترق طرق، مفترق طرق هو الذي يحدد مصير كل ما هو آتٍ، كأن للحكاية بطلاً جديداً، فالحكاية منذ بدأت وهي تأبى أن تنتهي، وكأن كليهما سيظل مهدداً بمفترق الطرق الذي إن شاء وضعهما على نفس الطريق من جديد.

وحتى الآن، لم يحدث شيئًا، لكن ماذا لو عاد الزمن إلى الوراء، ماذا لو التقيا الآن للمرة الأولى عند مفترق الطرق؟ من المؤكد أن فصول الحكاية كلها كانت اختلفت كليًا. لو التقيا الآن لأول مرة لأصبحا شيئًا واحداً

يصعب التفريق بين جزئيه، كان كل منهما سيبذل جهداً في سبيل الآخر؛ لأنه يمتلك المقدرة ويمتلك الطاقة لفعل ذلك، لأنه أخيراً ارتدى ثوب نفسه وأصبح مدركًا لذاته بحق، فلم لم يتأخر موعد اللقاء حتى ذلك الحين؟

لو كانت الحكاية بدأت الآن عند مفترق الطرق، لاكتملت أركانها الناقصة ولامتلأت بتفاصيل وأحداث كثيرة، لكن لسبب ما غير معروف لم يرغب الزمان في ذلك، لم يرغب في تأجيل اللقاء إلى الوقت المناسب، ولم يرغب في أن يصبح مفترق الطرق هو الصانع الحقيقي للحكاية، وربما أن لديه حكمة في ذلك يجهلها أبطال القصة إلى يومنا هذا، وسيجهلونها إلى الأبد ما دام مفترق الطرق مُحافظًا على موقفه الحيادي، باعداً بينهما كما يجب أن يكون.

زيارة غير متوقعة

شاردة الذهن وممسكة بقلمي أحاول أن أكتب ولو سطراً واحداً، هكذا كنت أجلس في هدوء حين فوجئت بهم يقتحمون غرفتي. لا أعلم من أين أتوا ولا كيف وصلوا إليّ من الأساس. لم يبادروني بالحديث، بل وقفوا محملقين إليّ في غضب واضح، كأنني ارتكبت جريمة في حقهم أجمعين! شكلهم كان مألوفًا بالنسبة لي، ربما أنني لم أرهم من قبل، لكنني أتذكر أن ملامحهم عبرت ذاكرتي وخيالي مرة من المرات. كان تجمُعهم غريبًا وغير منطقي، لا يوجد هناك أي تشابه بينهم، إذا رأيتهم شعرت أن لكل منهم عالم خاص مختلف كل الاختلاف عن الباقيين، فكيف لهم أن يجتمعوا ويقتحموا عالمي هكذا بدون سابق إنذار!

كانوا قرابة عشرة أشخاص، نساءً ورجالاً مختلفة أعمارهم وطفلين لم يتجاوزا العاشرة من العمر بعد. بقيت في مكاني لست أدرِ إن كانت خائفة منهم أو أنني سعدت برؤيتهم، لكنني لم أكن مستوعبة ما الذي يجري حولي. مرت عدة ثوانٍ من الصمت التام والنظرات المتبادلة، حتى بادرتني إحداهم بالقول في سخرية واضحة: يبدو أننا جئنا في وقت غير مناسب، ها أنتِ تحاولين تدمير حياة شخصًا آخر. بدت على وجهي علامات الاستفهام، عما تتحدث هذه الفتاة العشرينية؟ ومن هو ذلك الشخص الذي أحاول تدمير حياته بينما أنا في منزلي لا أفعل شيئًا سوى أنني محملقة في الفضاء وممسكة بقلمي البريء!

سألتها في فضول: عمّ تتحدثين؟ ومن أنتم من الأساس؟! كيف دخلتم منزلي؟!

اقتربت مني بإقبال واضح على الشر، ونظرت في عيني مباشرة، وقالت لي بحدة: والآن قد غمرتك آفة النسيان ونسيتِ ما فعلتِ بي، وبنا جميعًا.

خُفت من اقترابها مني، وبدا عليّ ذلك الخوف، فوجدت رجلاً عجوزاً يحاول أن يفصل بيني وبينها، ويهدأ من احتدام الموقف. كان يوجه إليها حديثه قائلاً: هي لا تفهم، يجب علينا أن نشرح لها الأمر برمته قبل أن نصدر عليها أي أحكام.

التفتت إليه وازداد اندهاشي، فقلت له: أحكام؟ أليس بينكم شخصًا عاقلاً يشرح لي المشكلة؟

اقترب مني أحدهم وكان يبدو عليه الحزم والشدة، أذكر أنني رأيته يومـًا ما، لكنني لا أتذكر أين ولا متى رأيته. قال لي: أنا الجندي الذي أنهيتِ حياته بكلمة في قصتك. ثم أشار إلى الفتاة العشرينية الواقفة بجانبه وقال لي: وهذه هي الفتاة التي جعلتيها تترك عملها وخطيبها الذي تحب في قرار ظالم منك، وهؤلاء، هؤلاء هم من جعلتِ من حياتهم كابوسـًا، فقط لأن قلمك أراد ذلك، لماذا تعبثين بحياتنا؟ ألم يكن بإمكانك أن تجعلي من حياة كل منّا جنة ونعيم، وأن تهبيه السعادة المطلقة، لكنكِ اخترت أن تحيطي حياتنا بالأشواك، وأن تجعلي منها مأساة يحكي ويتحاكى عنها الناس، فقط كي ترضي قلمك وعقلك الذي لا يفكر سوى بتدمير الآخرين!

انتبهت لكلامه وفهمت على الفور أنني أقف أمام أبطال قصصي، الذين صنعتهم بنفسي من وحي خيالي، ها هم يقفون أمامي ويحدثونني كبشر حقيقيين. شعرت بالشفقة عليهم، وعلى ما سببته بهم، لكنني لم أعرف بما أجيب، كيف أدافع عن نفسي؟ كيف لي أن استسمحهم؟ صرت الآن على علم ودراية بكل واحد منهم، فذلك هو الجندي الذي جعلته ينتحر بعد أن عاد من معركته مهزومـًا، وهذا الرجل العجوز هو الأب الذي حضرت زفاف ابنته وصنعت من مشاعره خليطـًا متناقضـًا يليق بأحداث القصة كما رغبت. وتلك هي الطفلة التي ألقيت بها في حربٍ شرسة، لم تخرج منها سوى بدمية بالية لم تعد تتعرف على ملامحها بعد أن دمرتها الأحداث. وذلك الرجل الذي يبدو كهيئة باحث وطبيب، هو فعلاً طبيب نفسيّ أوجدت له طفلاً معاقـًا، لكنني في الوقت ذاته أرسلت له مريضة اكتئاب تشكو له شعورها لحرمانها الأمومة لعله يتعظ ويعلم أنه في نعمة عن غيره

من البشر. وذلك الرجل الذي تبدو عليه حالته الاجتماعية القليلة التي دفعته للعمل في المشرحة، قتلت ابنته فلم يتمكن حتى من ذرف الدموع عليها.

كيف لي أن أعذبهم إلى هذا الحد، فقط كي أرضي خيالي وأترك لقلمي الزمام! نظرت لهم وقلت في صوت مخنوق: إنني لم أقصد إيذاء أي منكم، لقد كنت فقط أكتب..

فتقدمت نحوي الفتاة العشرينية مرة أخرى ودفعتني بقوة حتى اصطدمت بالأرض وبلغ غضبها حد الخطر، وراحت تصيح في وجهي: أنتِ جعلتِ من حياتنا كابوسًا، فقط كي تعكسي حياتك من خلال شخصيات أخرى لا تمثلك، لأنكِ أضعف من المواجهة، لأنكِ لا تملكين الشجاعة للتعبير عن تلك المآسي من خلال حياتك نفسها، فاخترتِ البديل السهل، وهو تدميرنا!

رددت عليها بنفس الحدة: من أنتِ كي تحكمي على حياتي وعلى كوني شجاعة أم جبانة؟ أنا من صنعتك وصنعت قصتك، ولولا خيالي وقلمي لكنتِ الآن نسيًا منسيًا لا وجود لكِ من الأساس! فهل هذا جزاء من يصنع منكم حياة وقصصًا؟! الآن جئتم تعلنون العداء؟!

تدخل الجندي، فقال لي بصوت حازم: كان بإمكانك أن تجعلي من حياتنا قصصًا سعيدة، لكنكِ اخترتِ النهايات الحزينة دومًا، عبثًا ما تقولين، فنحن لسنا إلا تجسيداً لمشاعرك أنتِ وحياتك أنتِ. استفزني حديثه، فقلت له في عصبية: ماذا تريدون مني؟! لقد صنعت قصصكم وانتهى الأمر، وليس بإمكاني تغيير مصائركم، فدعوني وشأني.

لم يعجبه كلامي، فقال لي: بل لن يغير مصائرنا سواكِ، وإلا ستجدينا هنا كل يوم، سنطاردك أينما ذهبت، سنقحم أنفسنا في أحلامك وفي حياتك اليومية، حتى نجعل من حياتك شيئًا مأساويًا كذلك الذي فعلتيه بحياتنا.

تملكني الخوف فوجدت نفسي ارتجف، وفي لحظة تمكنت من فتح عينيّ، لأجد نفسي قد أفقت من حلم مجهد وغريب، في فراشي لا جندي حولي ولا فتاة عشرينية، لا رجال ولا نساء ولا أطفال. سكون تام. فراحت تجول بخاطري الأسئلة، هل نفذوا تهديدهم واقتحموا أحلامي فعلاً؟ أم أنها صدفة عابرة؟ هل فعلت بهم سوءاً تعبيراً عن نفسي، أم أنه خيالي الذي نسج أحداث حياتهم دون أن يخلطها بحياتي.. لست أدري، لكنني الآن على الأقل التقيت بهم ولو لمرة، ورأيت ملامحهم التي رسمتها وشخصياتهم التي صممتها. رأيت انعكاس أفكاري كأنها حقيقة جليّة أمامي، وسيجيب الزمن على تساؤلاتي، أو ربما سيجيبون هم عليها..

الآن نلت الحرية

الآن نلت الحرية، الآن شعرت لمرة واحدة في حياتي أن قراراتي ملك يدي، وأنني ما زلت قادر على التحكم في مصير شيء ما يخص حياتي، حتى لو كان ذلك المصير يخص إنهائها.

يا صديقي، أنا آسف للمشهد الذي سيظل محفوراً في ذاكرتك إلى الأبد ولن تفلح المحاولات في أن تمحي ولو جزءاً من هذا المشهد، أنا آسف لأنك حتمـًا ستشعر بالذنب، وصدقني إذا قلت لك إنني رغم علمي اليقين أنني سأتسبب في إيذائك النفسي إلا أنني لم أرغب في ذلك، وصدقني إذا قلت لك إن الفكرة كانت وليدة اللحظة، وإنني لم أكن أنتوي إدراجك في هذا الأمر مطلقـًا. فكرة النهاية كانت موجودة منذ زمن، لكنني لم أخطط لها لتكون في هذا المساء بالذات، وفي حضورك أنت بالذات. لكنه قدرك الذي جعلك الشخص الأخير الذي أرى في عينيه الذعر والعجز في لحظة سقوطي من البرج.

يا صديقي، لقد استمرت رحلة السقوط لبضع دقائق، ودّعت فيها كل ما كان يعنيني في الدنيا، ولم أكن أحتاج إلى أكثر من دقائق بالفعل، لأنه حين تهون عليك نفسك، يهون عليك العالم أجمع، ولا يتبقى شيء يستحق الاستمرار والمحاولة. ولتعلم أنني حاولت كثيراً العدول عن هذا القرار، لكن الاكتئاب كان يشبه الصدأ الذي يتغذى على روحي قطعة تلو الأخرى، وما إن يصيب جزءاً إلا وجدته ينتشر في بقية الأرجاء بسكون وسرية تامة، وبلا أي أثر ظاهر. كيف أصف لك شعوري؟ أعلم أنه لم يكن يبدو على مظهري شيء يذكر. ما زلت الشاب الوسيم الذي يرتدي ملابس نظيفة وأنيقة، ربما أن لحيته نمت قليلاً ولم يحلق شعر رأسه منذ فترة لكن عادي، ما المشكلة في ذلك؟ هذا لا يدل على الاكتئاب! أرفض الرد على الهاتف، وحتى إن رددت والتقيت بكم، ما الملفت للنظر؟ قليل من الهدوء والشرود؟ هذا أيضـًا شيء عادي! لكنه يا صاحبي لم يكن عاديـًا، لقد كنت عالقـًا في بؤرة عميقة لا أصل إلى نهايتها، كاحلة السواد، لا يحيط بي سوى أفكارٌ تدفعني إلى إنهاء حياتي بشتى الطرق، وأصواتـًا تخبرني أن النهاية قد اقتربت. هل تظن أنني لم أكن ارغب في أن يمد لي أحدهم يد العون؟ لكن الاكتئاب يا صاحبي يمنع صاحبه أحيانـًا من طلب المساعدة، لقد كنت في عجز تام عن وصف ما أمرّ به من مشاعر تقتلني، لقد كنت في عجز تام عن إطلاق صرخات تطلب النجاة. ولذلك لم أنجُ!

وأنا لا ألوم أحداً. ربما أنني كنت قليل الحظ بعض الشيء، ربما أن الظلم كان الدفعة الأولى التي زجت بي إلى تلك البؤرة، ربما كان جلد الذات المستمر والشعور بالضياع، لست أدري! كل ما أعلمه أن روحي لم تنطفئ

فحسب، بل إنها كانت تتسحب خارجة من جسدي تبحث عن ملجأ آخر، تاركة إياي في الوحل!

ورغم كل ما بي من أصوات، إلا أنني كنت جبانًا. كنت أجبن من الإقدام على النهاية، لا أدعي أنه كان لدي بعض الأمل، لأن في حقيقة الأمر أنا لم اعد أشعر بشيء محدد. فقط الخواء، وذلك الخواء لا يمكن لشخص أو شيء أن يملأه مجدداً إلا إذا فتح أبوابه، وروحي كانت منغلقة على نفسها، تعذبني وتؤلمني حتى تخرج مني تمامًا، واليوم نالت حريتها! وكيف اصبحت فجأة جريئًا إلى هذه الدرجة؟ في الواقع ما زلت جبانًا، لكنني شعرت في قرارة نفسي أنني في حاجة إلى كتابة ولو سطر واحد في حكايتي بخط يدي، عليّ أن أختار شيئًا ما، فقررت اختيار النهاية، وصدقني أن كل النهايات أرحم من أن تظل روحك حبيسة في الظلام الذي بداخلك. روحك التي كانت لها أحلامًا وردية، وصداقات عدة، وحبيبة فاتنة. روحك التي غذت ذكرياتك بأحداث في الطفولة والمراهقة، وطالما أضاءت لك الطريق لتستكمل ما بدأت. روحك التي ظننت أن ليس هناك شيء يمكنه أن يفعل بها أي شر، فوجدتها تتخلى عن سماتها بالتدريج، تتخلى عن الشعور بالضحكات التي على وجهك، وتتخلى عن رغبتك العارمة في تحقيق أحلامك. تتخلى بعد ذلك عن حبيبة كانت هي السكن والمودة والرحمة؛ لأن لم يعد هناك ما يرحم، ولم يعد هناك مجالاً للمودة. تتخلى بعد ذلك عن صداقات وعلاقات اجتماعية كان بمثابتها إخراج أفضل ما بداخلك، وإعلاء صوت قهقهاتك التي أيضًا تم التخلي عنها بعد حين. ثم ماذا؟ ثم ماذا يا روحي المنهكة، ماذا بعد أن تخليتِ عن كل ما

كان يبقيكِ منيرة ومشتعلة؟ انطفأتِ وصممتِ على البقاء في هذا الوضع، رغم أنه لا يعنيكِ وحدك، لكنني تركتِ لك حرية الاختيار، فأصبحتِ بين ليلة وضحاها خاوية ومزرية تعزفين لحنًا رتيبًا يشبه الموت، تسمعيني إياه في صباح كل يوم، وتصرين عليه، كيف بإمكان كل ذلك أن يصبح خاويًا؟ كيف بإمكانك أن تفعلي ذلك بي؟

لكنني احترمتك إلى آخر لحظة، ونفذت كل رغباتك بالحرف الواحد. حتى قرار النهاية، رغم تأجيله لفترات طويلة، إلا أنني في النهاية اتخذته وأثبتت لكِ قدرتي على الاختيار، حتى وإن كان في ذلك الاختيار مجرد تنفيذاً لخياراتك أنتِ من البداية. ها أنا ألقي بنفسي من أعلى برج صعدته في حياتي، ألقي بنفسي غير عابئٍ بما ستكتبه الصحف والمجلات، وما ستنشره وسائل الاعلام. لقد اخترتك، اخترت حريتك واشتريتها بثمن باهظ، لن أدفعه وحدي. سيدفعه كل شاب وشابة وصل إليه مشهد سقوطي، ستدفعه أمي إلى الأبد وهي تبكي على قرة عينها، سيدفعه أبي انكساراً ولحاقًا بذات الاكتئاب الذي لن يفارقه منذ اليوم. ستدفعه أحلامي التي تركتها ليحققها شخصٌ غيري، وذكرياتي التي لم تستكمل مسيرتها وتوقفت عند حد معين لم يتوقعه أحد، ولا حتى أنا، ستدفعها حبيبتي وهي تحاول أن تتملص من وجودي الساكن في قلبها، لكنها ستعاني كل مرة وستسأل نفسها كل يوم إن كان لها دور في ذلك، أو أنها كانت مقصرة في شيء، وكم أود لو بإمكاني إخبارها أنها كانت الجزء الأفضل من حياتي، لكنني انهزمت أمام تآكل روحي، وهذا شيء خارج عن إرادتي وإرادتها. هذا الثمن سيدفعه كل ركن تركته بلا كلمة وداع ولا ابتسامة توحي ببلوغ

النهاية، وستدفعه أنت يا صاحبي دموعًا وتساؤلات ومحاولات مستميته للنسيان، لكنك لن تقدر، وربما أنك سترى ذلك المشهد في أحلامك لمدة عامين أو ثلاثة، لكن لا تجزع، يومًا ما سيتحرر عقلك الباطن مني ويتولى غيري من الأحداث هذا المكان.

لكنني أود منكم الترحم عليّ فقط، ولا تحزنوا، على الأقل ليس إلى الأبد، لقد حررت روحي الحبيسة اليوم، وذلك أقصى رغباتها، وأنا عبد لها ولأوامرها. فصدقوني، هذا القرار هو إنجازي الأكبر!

على الضفة الأخرى من العالم

على متن الحافلة التقينا، أو على الأقل التقيت أنا بها. لمحتها من على بعد وهي تركب مهرولة وتبتسم للركاب بحرج واضح لكثرة الأشياء التي تحملها، والتي تتخبط بهم في كل الناس. لم يكن هناك مكانًا شاغراً، لكنها وقفت بجانب مقعدي أملاً في أن يقف لها أحدهم، وبالفعل عرضت عليها الجلوس، لكنها رفضت باستماتة، وقالت إنها ستنزل قريبًا فلا داعي، وابتسمت ابتسامة كشفت عن أسنان رسمها وأحسن رسمها فنان حالم. ظللت أتسلل النظر إليها بينما هي واقفة تضع سماعات في أذنيها وتحملق شاردة من النافذة وتظهر ابتسامة خفيفة على وجهها من حين لآخر دون أن تدري، ابتسامة ليست واضحة، لكنها فقط تنم عن الشعور بالارتياح أو الرضا، لست أدري..

في المحطة المقبلة توقعت أنها ستنزل، لكنها لم تفعل، وعلى ما يبدو أن طريقها ليس قصيراً كما زعمت، لكن لحسن الحظ نزلت العجوز التي كانت بجانبي، فجلست هي بجواري، وتنهدت، وتنهدت أنا لما شعرته من

تغير ضربات قلبي! لست مراهقًا، ولست شابًا طائشًا ينجذب لكل فتاة يلقاها في المواصلات العامة ويحمر وجهه خجلاً حين تجلس بجانبه، لكن هناك شيء ما لم أستطع تحديده جعلني متوق إلى سماع قصتها، واستطالة النظر في حسن ملامحها. كانت لها سمرة خفيفة، وعيون سوداء ضيقة، لكنها جذابة، وأنف صغير يلائم تلك الملامح الدقيقة، وعلى وجنتها اليسرى غمازة تبرز كلما ابتسمت. شعرها كان قصير يصل بالكاد إلى كتفيها، وتركته كذلك عشوائيًا يتنفس هواء الصباح. كانت ترتدي بلوزة صفراء زاهية اللون، جعلت من سمرتها شيئًا أشبه بزهرة عباد الشمس، وتنورة سوداء تصل إلى ثلث ساقها، وحذاء أسود برقبة طويلة أضاف إلى إطلالتها أناقة فوق أناقتها.

حين جلست بجانبي، خلعت السماعات التي كانت ترتديها، وكان في ذلك الفعل شيء يدعوني لبدء الحديث، فلو لم تكن ترغب في الحديث لما كانت خلعتهم! اختلست النظر إلى هاتفها لأرى نوع الموسيقي التي كانت تستمع إليها، فوجدتها تستمع إلى "فرانك سيناترا" وأغنيته "My Way" كذبت كذبة بيضاء لأبدأ في الحديث، فقلت:

- "فرانك سيناترا" على ما أظن؟

التفتت إليّ ولم تقل شيئًا، لكنها عبرت بملامح وجهها عن عدم فهمها للسؤال، فكررته:

-كنتِ تستمعين إلى "فرانك سيناترا"؟ لقد سمعت جزءاً من الموسيقي وأنتِ تخلعين السماعات.

ابتسمت مجدداً واختلست النظر إلى هاتفها في حرج، ثم عاودت النظر إلي:

-آه، نعم .. "فرانك سيناترا" وأغنيته "My Way"، هل تحبه؟

ولحسن الحظ فأنا مستمع جيد لشتى أنواع الموسيقى، وأعجبني سؤالها، هذا حتمًا يعني أن لا مانع لديها في محادثة قصيرة، حتى يحين موعد النزول.

- أحبه بالطبع، "فيروز" أيضًا غنت أغنية شبيهة تمامًا بـ "My Way" حتى أنها استخدمت نفس الألحان وكلمات متقاربة جداً.

- أحب "فيروز"، لها ركن مخصص في قلبي. تعال معي.

- إلى أين؟

لم ترد على سؤالي، وجدتها تجذبني من ذراعي واستسلمت لها كطفل متحمس لرؤية مفاجأة ما هو على مشارفها. نزلنا من الحافلة، ولم أسألها ثانية، كي لا يبدو عليّ التذمر، فأنا في الحقيقة لست متذمراً على الإطلاق، فهذا أكثر مما كنت أتوقع وأكثر مما كنت أتمنى. تشبثت بذراعي والتصقت بي، كأن بيننا عشرة وحميمية قديمة.. كأننا حبيبين من الستينيات يجولان شوارع أوروبا متشبثين ببعضهم البعض. مشينا في شوارع طويلة تحفها من الجانبين دكاكين صغيرة، تحوي الكثير من العرب. وكل رصيف تتوسطه ورود وحشائش خضراء محاطة بسور قصير القامة؛ كي لا يقتلها أحد عن خطًا. الشمس كانت تتوسط السماء في ذلك الوقت، يومًا شتويًا مشمسًا.. وهذا نادراً ما يحدث في مثل تلك البلاد الأوروبية، لكن يبدو أن الطبيعة كانت راضية عني في ذلك اليوم بالذات. انعكاس

الشمس على وجهها كان يبعث في ملامحها طاقة لا يمكن أن تخفى على أي ناظر، تماماً كعباد الشمس، تحييه الشمس وتبعث فيه الروح. كانت جميلة، في خطواتها السريعة وأنا ممسك بيدها، أتبعها بجهل سعيد، كانت تنظر لي من الحين للآخر كعادتها منذ أن رأيتها، وتبتسم ابتسامة خبيثة، كأنها نجحت في خطتها في الإمساك بي، وهي لا تدري أنها لو لم تتركني إلى الأبد سأظل ممتناً إلى تلك اليد المتشبثة بي.

اجتزنا بعض الحارات، ثم وصلنا إلى مقهى تبدو عليه أصالة القدم. مختلف عن كل المقاهي التي رأيتها في أوروبا. مُعلق عليه يافطة تقول "١٩٢٧" ولا أكثر ولا أقل.. لكنها كانت مكتوبة بالعربية، مما زاد من اندهاشي. دفعت الباب بقوة، كأنها صاحبة المكان وليست زبونة عادية، حتى وإن كانت زبونة ترتاد على المكان كثيراً. ابتسمت مجدداً وهي تفتح الباب، ولمعت عيناها السوداوان ثم همست: الآن سترى من العالم أموراً يظن مثلك أنها لم تعد موجودة.

ووجدت نفسي فجأة وفي وسط صالة كبيرة تتسع لأكثر من مائتي شخص. في آخرها مسرح مرتفع قليلاً عن الأرض، وليس بكبير، وباقي الصالة عبارة عن طاولات وكراسي خشبية عتيقة. الإضاءة كانت خافتة صفراء رغم أن الشمس ما زالت تتوسط السماء، وتُشعرك بشيء من الضباب يحجب بينك وبين رؤية الناس بوضوح. في أركان الصالة كانت هناك أرفف، بعضها شاغراً والبعض الآخر يحمل أشياء قديمة جداً، أحدها يحمل راديو أظن أنه كان خاصاً بالسيدة أم كلثوم شخصياً، وبجانب الراديو تقف آلة كاتبة شامخة، يبدو أنها تعود إلى "توفيق الحكيم"، ورفوف أخرى تحمل

كتبًا تعلوها طبقة من التراب، ويبدو على أوراقها الصفرة. كانت الصالة لا تحوي أكثر من نافذتين، يبدو شكلهما أقرب إلى مشربيات بيت السحيمي، الفارق الوحيد أن هناك ستارة بيضاء من الشيفون تنسدل عليهما، وتحركهما نسمة خفيفة، ويتسلل منهم شعاع ضوء يحيي المكان بعض الشيء. من كل ركن في الصالة كانت تصدر موسيقى مختلفة وصوت مختلف لم أستطع تمييزه عن بعد.. أو ربما لضيق أفقي.

كانت الصالة تعج بالناس، حتى أنني ظننت أننا دخلنا إلى حفل ما أو زفاف أحد من معارفها، لكن لا أحد من الجالسين كان يبدو مناسبًا لزفاف. أخذتني من يدي، وبدأنا نتمشى وسط هذا الجمع الهائل من الناس.. ونمر بين الجالسين خصيصًا. قلت لها: أين نحن؟ فلم ترد، اكتفت بالنظر والإشارة إلى الركن الذي يقع أسفل المشربية مباشرة، فدققت النظر، وتمشيت بضع خطوات إلى هناك، ولم أصدق ما رأيت. كانت "فيروز" جالسة إلى طاولة مع "عاصي الرحباني". تمامًا كما أرى صورها، بل أجمل. شعرها ذهبي ينسدل على كتفيها في رقة، ونفس التعبيرات الجادة تفرض نفسها على ملامحها، لكنها كانت تبتسم من حين لآخر، وهي تُبعد خصلة من شعرها عن عينيها. سمعت "عاصي" يقول لها:

- عطيني وعد إنك ما تروحي لو شو ما صار بيناتنا!

- رح أوعدك بـ شي تاني.. رح ضل أرجعلك دائمًا، لو شو ما صار بيناتنا.

نظرت إلى فتاتي بعينين متسعتين، وقلت لها: أليس ذلك وعد "فيروز" لـ "عاصي" الذي كُتب عنه الكثير جداً.. فأومأت بالإيجاب واتسعت

ابتسامتها وهي تنظر إلى دهشتي الواضحة على وجهي. لم تلحظ "فيروز" وجودنا من الأساس، كانت منشغلة بحبيب العمر، وصممت على تركهما معـًا، فأنا على علمٍ بم يخبئه المستقبل لهم من انفصال ومرض ودموع "فيروز" على المسرح وهي تقول "لأول مرة ما بنكون سوا"، تمنيت أن تستمع جارة القمر بحبيبها إلى أقصى حد دون تطفل أو إزعاج من أحد.. لحظات الحب جنة لمن يقدرها.

أخذتني جميلتي إلى طاولة أخرى، حيث استطعت أن أرى ملامح عجوز بشنب أبيض، ممسكـًا بعصى خشبية أنيقة ويرتدي قبعة سوداء، مسنداً ظهره إلى الوراء واضعـًا كفية على رأس عصاه، تاركـًا قلمـًا ودفتراً على طاولته، ويبدو أنه شاخص البصر في مكان بعيد لا يمكننا رؤيته إلا إذا أعارنا عينيه. اقتربنا منه أكثر، فعرفته من تلك الدنيا التي استولت على عقله، ربما كان يفكر في مسرحية جديدة أو أبطال قصة ينسجهم حاليـًا في خياله حتى يحين موعد ولادتهم. ابتسمت له وأنا على يقين أنه لا يراني، لكن انتابتني رغبة قوية في تقبيل كفيه حبـًا وتقديراً، كأنني التقيت بجدي بعدما حال الزمن بيننا. طلبت منها أن نقف قليلاً نراقبه في صمت، قبل أن نرحل إلى طاولة أخرى، فاستجابت لي. كان حكيمـًا بحق، يبدو عليه الوقار والرزانة. حين استعاد نفسه من دنيا أفكاره، اعتدل في جلسته ببطء وأمسك بقلمه، وراح يكتب، حتى أنني شعرت أنه أصبح في عالم آخر أكثر عمقـًا، وأوضح تفاصيلاً من عالم خياله الذي كان غارقـًا فيه. ظل يكتب ويقلب الصفحات ويكتب.. ثم يقضي بعض الثواني في النظر إلى الفراغ قبل أن يعيد عينيه إلى أوراقه ويستكمل ما بدأ. كنت متحمسـًا لأرى ماذا يكتب.. لقد وقعت في

حبه منذ قرأت "الرباط المقدس"، للدرجة التي جعلتني أقرأها مرتين! اختلست النظر إلى ما يكتبه، فعلمت أنه كتاب "حوار مع الكوكب"، كنت قد قرأته من قبل. ابتسمت مودعًا الأستاذ دون أن يلحظني.. وسمحت لجميلتي أن ترشدني إلى طاولة أخرى.

على الطاولة الثالثة التقينا بـ "فاتن حمامة" و "عمر الشريف".. شعرت أنني في حلم يزداد جمالاً كلما انتقلت إلى طاولة جديدة، لكن لسبب ما لم أكن أستطع تبينه في البداية اكتست ملامح الثنائي بالحزن. فاتن، تلك الفاتنة بحق. شعرها القصير كان يصنع هالة على جانبي وجهها المضيء كالقمر، وكأن الحزن زاد ملامحها جمالاً ونعومة، الحزن لا يشوه الفاتنات، أو على الأقل لا يشوه جمال "فاتن"، لكن رغم ذلك شعرت بشفقة تجاهها، فهذا الوجه الملائكي والصوت الذي له تأثير الناي على الآذان لا يستحق كآبة، ولو للحظة عابرة. أما عُمر، فكانت تكسو ملامحه حيرة أقرب إلى الشعور بالذنب، أو التردد حيال أمر ما، لكن نظرة عينيه توحي لك أنه سيقدم على ذلك الأمر، ويندم لاحقًا، وهو على علمٍ بذلك! اقتربت منهم قليلاً واستطعت أن أستمع إلى بعض من أطراف الحديث، الذي كان مضمونه أن لُعمر حياة ومستقبل ينتظره في أمريكا، ولا ينوي العدول عن قراره. أتستحق هذه الفاتنة كل تلك التعاسة؟ ألا تستحق أن يُترك من أجلها أي مجد موجود في أمريكا؟ ألم يندم على قراره بعد ذلك؟ المسافات أقوى من الحب، والفتور وليد البُعد، وما إن فترت القلوب حتى انتهت العلاقات بأسوأ طريقة ممكنة، فما ينتهي ببطء لا يعود أبداً، مهما حاول الأطراف. "لا تتركها يا عُمر" كنت أغمغم رغم علمي اليقين بنهاية تلك القصة.

لاحظت رفيقتي الدموع التي بدأت تجد طريقها إلى عيني، فأخذتني من يدي وقالت لي: "تعالَ هناك طاولات أخرى في انتظارنا.. ألا تحب أن ترى أم كلثوم مثلاً؟" فاستسلمت لها كالعادة، وتحمست لرؤية كوكب الشرق. شامخة تمامًا بصوت رخو كما اعتدتها على شاشات التلفزيون، لم تختلف كثيراً، لكنني حظيت بفرصة الاقتراب من ملامحها، فوجدتها أجمل مما تصدره لنا الشاشات، كانت تجلس مع "عبد الوهاب"، يتحدثان عن أغنية جديدة من ألحانه وكلمات شاب سوداني اسمه "الهادي آدم".. سمعتها تحكي له قصة الأغنية. كانت تقول إن ذلك "الهادي" له حبيبة من بنات الباشوات، وهو شاب بسيط ليس من نفس الطبقة الاجتماعية، لكن الحب لا يعرف الطبقية، فوقع في حب الفتاة، وتقدم لخطبتها، وبالطبع لم يقبل به والدها.. فلم يستغنِ عن حبها، ولم يتقدم لخطبة أخرى بعدها بفترة وجيزة، بل ظل محافظًا على العهد، وعلم أن الحب ليس بقرار، واستسلم لهوى القلب، حتى لو كانت الظروف ضده. حتى تغيرت الأحوال ووافق والدها بعد إلحاح طويل، وتم تحديد موعد اللقاء، فكتب "الهادي" تلك القصيدة وهو سهران أمام بيت حبيبته ينتظر ذلك اللقاء، وهو يقول:

آه كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابًا

كنت أستدنيه لكن هبته لما أنابَ

كم أعشق تفاصيل تلك الأغنية، ألحانها تأخذني في دنيا بعيدة، دنيا جميلة من صنع "عبد الوهاب"، وما إن تبدأ الست في الغناء، أشعر أن جمالاً فائقًا

انبثق من رحم الأرض، ليهب تلك الدنيا حالة أخرى، لا تنتهي إلا بانتهائها من الغناء.

شعرت في قرارة نفسي بحالة من النشوة لم أجربها من قبل، كيف يمكن لكل تلك الحكمة والتاريخ أن يجتمع في صالة واحدة، ولا تفصلني عنهم إلا أمتار قليلة وأدبي في مراعاة عدم مقاطعة أحاديثهم. لو كان بإمكاني التدخل، لغيرت مسارات بعض الأحداث وأضفت رأيي إلى البعض الآخر.. لكن فلنترك الأمور تجري كما شاءوا، فالمثالية أحيانًا تفسد واقعية الأشياء، وتسلب منها روحها وكونها شيئًا بشريًا، وأنا لن أتسبب في ذلك. لن أفسد جمال اللا مثالية فقط كي أضيف رأيي الذي لن يفيد في شيء سوى تغيير مجرى الأمور، هذه أنانية لا أسمح بها.

كنا قد وصلنا إلى آخر الصالة، عند باب خشبي سميك مقفول وموصد بعدة أقفال، كأنه يخبئ كنزاً وراءه. سألتها: ماذا بعد؟ ماذا يوجد خلف ذلك الباب؟ فقالت: "توجد أزمنة كثيرة.. آخرها عام ١٩٢٧ لكننا سنكتفي بذلك القدر الآن.." وقفنا عند الباب وتبادلنا النظرات، كم كانت ساحرة! نظرت حولي ثم سألتها فعلاً: "هل أنتِ ساحرة؟" فأطلقت ضحكة من قلبها، وشعرت بشيء من الفخر لكوني تمكنت من إضحاك ذلك الملاك. نظرت في عيني مباشرة، وقالت بابتسامة: "لست أدرِ، ربما ساحرة سحرت عقلك، ربما جنّية حققت أمنياتك، ربما مَلكٌ أخذك في جولة سماوية، وربما مجرد بشرية وقعت في حبك وأرادت أن تريك شيئًا من عالمها الذي يبدو مصادفة أنه عالمك أنت أيضًا. ربما أنك النصف الآخر الذي يصفه الناس؟"

اتسعت عيناي، ولم أصدق ما أسمعه، هذا لا بد أن يكون حلمـًا.. هل لي نصيبـًا من هذا الجمال؟ ماذا فعلت كي أستحقه، اقتربت منها ومددت يدي لألمس بشرتها السمراء التي تشبه صفاء النيل في أسوان، رغبت في التأكد من كونها حقيقية، وكون ذلك حقيقيـًا. فلمست وجهها وابتسمت خجلاً، ثم وضعت يدها على كتفي، برقة وهدوء.. شعرت بها، هي حقيقية. لكن تلك اللمسة انقلبت تدريجيـًا إلى هزة عنيفة في كتفي الأيسر، وصوتـًا قبيحـًا لا يمكن أن يصدر منها، يصيح: "الأجرة يا باشا" وبدلاً من أن أفتح عيني فأجدها متشبثة بيدي كما كانت، وجدت الكُمسري ينتزع كتفي من مكانه مطالبـًا بأجرة الأوتوبيس! أهذه حقـًا النهاية التي أستحقها؟! لا بأس.. على الأقل كانت هنا.. وكأنني كنت على ضفة أخرى من العالم.

ساكن القبور

انصرف الزائر الأخير هو وجماعته حينما أنهكهم وأنهكت آذاننا النواح والبكاء والصرخات.. آه كم أكره هذا النوع من الزائرين، الذي لا يجلب إلينا سوى الهم والغم وألم الرأس، الذي يسمونها في دنيتهم "الصُداع"، رغم أن كلمة الصداع هذه تعني الشق الذي يحدث في الشيء الصلب فيكسره أو يقسمه إلى نصفين، وأنا أشك أن تكون أدمغتهم صلبة أو تستحق التشبيه بالصلابة.. فهي أشبه بأوعية تملؤها صرخات عدة ومحيطات من الدموع يتذكرونها كلما أتوا لنا في زيارة، كأننا في حاجة إليها. أحيانًا أشفق عليهم بقدر ما أكرههم، مساكين، تملأ أدمغتهم الظنون والأوهام، وهم بعيدون كل البعد عن الحقيقة. لكنني أعود وأتذكر أنني كنت كذلك، وأن دنيتهم والتي كانت سابقًا دنيتي، هي ما فعلت بنا ذلك، ولا نصل إلى الحقيقة الكاملة إلا حين نغادرها إلى دار الحق! لذلك سميت دار الحق، هنا تنتهي الأوهام والمعتقدات المغلوطة، وكل الخرافات التي تم حشوها في عقولنا حينما كنا على خشبة مسرح الدنيا.

أغلبهم ينصرفون عند غروب الشمس، أو قبل ذلك.. وهذا أيضًا من الخرافات المسكينة التي ملأت عقولهم، فما الذي يغيره وجود الشمس أو غيابها في حقيقة هذا التراب؟ لا شيء! الظلام ليس مخيفًا، ولا نحن! لكنهم رغم ذلك يأتون لزيارتنا وينصرفون سريعًا قبل أن يحل الظلام، كأننا بشر يفتقدونهم نهاراً، ووحوش يخشونها بحلول الظلام، مساكين. ومن يأتِ بعد حلول الظلام غالبًا ما يكون لصًا أو حارس القبور.. هؤلاء الوحيدين الذين لا يخشون الظلام، ولا يخشون القبور. لم أصادف لصًا طوال إقامتي ها هنا.. لكنني سمعت عنهم ممن سبقوني، فاللصوص كثيرون وحارس القبور عديم الفائدة، يجلس بيننا كأنه واحد منا.. كثيراً ما يحدثنا عن أمور حياته وعن ابنته التي لا يعرف عنها شيئًا منذ أخذتها أمها وهربت، يقول لنا إن المسكينة لم تتحمل الحياة في المقابر، ولم ترضَ بتلك الحياة لابنتها، فأخذتها واختفت، ولم يعثر عليها حتى الآن، يقول لو إنها أخبرتني، لكنت فكرت في بديل آخر، ثم يعاود القول "لا والله يا جماعة انتوا عشرة عمري وميهونش عليا فراقكم" ويسكت قليلاً ثم يقول "لكن دي برضو بنتي وحتة مني"، ويستمر في الحديث إلينا لساعات طويلة كل ليلة حتى يغلبه النوم في بيت أحد منا، ويتسنى لأي لص أن يفعل بمكاننا ما يشاء، لكنني لا ألقي عليه باللوم، فعشرتنا بالطبع مملة، نرغب في التواصل معه لكن ذلك ليس بالإمكان، فيسظل المسكين يحدث نفسه ليلاً ونهاراً حتى يغلبه النعاس.

كل يوم نستقبل عشرات السكان الجدد، من كل الأعمار والأشكال والأجناس، وكل ساكن جديد يتبعه زواره الذي يقلّون بطبيعة الحال مع

مرور الزمن. هنا المكان الأنسب للنسيان، لن يلومك أحد إذا نسيته هنا ومضيت في حياتك؛ لأن ذلك هو المنطقي والمتوقع، رغم أن الحقيقة أننا نشتاق إليهم وإلى أصواتهم وقربهم منا.. لكن العجز هو ما يحول بيننا وبينهم. العجز عن اللوم وإبداء ذلك الاحتياج، فاعتدنا على ذلك الوداع الحار الذي لا يجلب لنا سوى الغم، ثم نسيان قاسٍ يستمر إلى الأبد.. لا يقطعه شيء سوى "الواجب" أحيانًا، أو توصيل ساكن جديد إلى مقره بيننا.

الليلة الأولى هي أصعب الليالي وأسوأها، بعضهم يأتون في حالة من الإنكار وعدم الفهم، والبعض الآخر يغلبه الخوف والتشتت، وأسوأ لحظة عندما يحين رحيل الأحبة والزوار، ويعلم المرء أنه منذ هذه اللحظة تُرك وحيداً تحت التراب، لا يحيطه سوى أموات مثله، وبالطبع حارس القبور المسكين. حسنًا أيها الساكن الجديد، سيكون عليك التأقلم على هذا الحال، فذلك لن يتغير، وستحتاج إلى تقبل عشرتنا، وتقبّل كونك ميتًا أيضًا. وتمر الأيام وتعقبها الليالي، ولا ينسى أحدنا ليلته الأولى وفيمَ قضاها، لكننا لا نتشاركها، فهذا السر الأكبر الذي لا يمكن لأحد البوح به. أما ما يمكننا البوح به، بل والتفاخر به هو أعداد الزوار وتكرار زياراتهم، لكن الجميع ينخدع في البداية، ويأخذه العشم في جنات بعيدة فيظن أن الحال سيظل كما هو عليه حتى يصبح زوارهم سكانًا بجوارهم، لكن هذه الآمال لا تلبث أن تتحطم بفضل الدنيا ومشاغلها، ومهما طالت تلك الزيارات فنحن على يقين أنها ستنقطع بعد حين!

آه.. كم اشتقت إلى ساكن جديد ممن أعرفهم. اشتقت إلى زوجتي، الوفية الجميلة التي ما زالت تتذكرني من حين لآخر، والوحيدة التي لم تحطم آمالي على عكس الباقين. أما عن أولادي، فلم أعد أشغل في أدمغتهم حيزاً يذكر، لكنني لا ألومهم على شيء. هم يعتبرون أنني خذلتهم بموتي، رغم أن ذلك ليس حقيقيًا. كانت لدي أحلامًا كثيرة وخططًا لأجلهم. كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أرى كل منهم على بر الأمان. كنت أتمنى أن أستمتع بما بقي لي من العمر في حضرتهم، في سماع أصواتهم المشاغبة، في السفر معهم وحضور المباريات، في نزول البحر وفي مشاهدة أفلامًا كثيرة معًا. لكن لا شيء من ذلك استمر.. وددت لو أنني بقيت حتى يبلغوا سن الرشد، لا أن أرحل في مراهقتهم وهم في أشد الاحتياج إليّ، لكن سامحوني.. فالأمر ليس اختياري، والحقيقة أن الموت أهون من المرض، وأهون من أن أرى قلوبكم تعتصر ألمًا كلما رأيتموني. نعم نعم، أعلم أنك تعتقدون أنني لم أقاوم بما يكفي.. وهذا حقيقي، لقد تملكني اليأس في النهاية ولم أتمكن من المقاومة، بل إنني تمنيت أن يخطفني ملك الموت سريعًا قبل أن يذبل جسدي أكثر في ذلك المرض البغيض. كنت قد سئمت جلسات العلاج ومواضع الإبر في جسدي، كنت قد سئمت الألم ولم أعد قادراً على التحمل، فاستسلمت. سامحوني، كانت لدي أحلامًا كثيرة من أجلكم.

أما هنا، فأنا في هدوء وطمأنينة، لا ينقصني سواكم. كانت ليلتي الأولى هي الأصعب على الإطلاق أيضًا، لكنني ما زلت أتمكن من متابعتكم من حين إلى آخر، فصار الأمر أهون، هنا الحق والسلام والفضيلة، لا مجال لخطايا ولا حزن ولا ندم ولا نسيان، كأننا في يوتوبيا مدينة أفلاطون الفاضلة. لكن

المدينة تخلو من الأحباب، وفضيلتها لن تكتمل ولن تصبح صحيحة إلا بحضوركم، لا أتمنى لكم الموت، بالطبع! لكنني فقط أخبركم أن الأمر ليس بتلك البشاعة التي يصورها الناس في الدنيا، نحن فقط واقعون في حب الزيف والأوهام، وهذا المكان خالٍ من كل زيف ومن كل وهم، فتتصوره بشعًا ومخيفًا، لكنه ليس كذلك. ثم إن الإنسان يعتاد على كل شيء، تمامًا كما اعتاد كلٌ منا على وضعه، فلا تخافوا، الأمر أسهل مما تتخيلوا!

وإن كانت لي امنية واحدة، فهي ألا تطيلوا الغياب.. فأنا في حضرتكم أعود إلى حياتي في أذهانكم جزئيًا، وبغيابكم الطويل أتلاشى وأتآكل في مغارة النسيان، وهذا أكثر ما يرعبني. أرسل لكم السلام دومًا مع حبيبتي، أعلم أنها تسمعني، وأنها ما زالت تحكي لكم عني الكثير من الحكايات، لا تنسوني، وإن كنت نسيًا منسيًا لكل الدنيا.

إلى يوتوبيا . .

هذه هي المحاولة السابعة لاستكمال واحدة من رواياته اللاتي لم يشأ القدر أبداً أن يروا نهاية، وظل أبطال رواياته السابقة هكذا معلقون بين السماء والأرض، ينتظرون أن يرسم لهم أحد نهاية تصل بهم إلى بر الأمان، لكنه لا يعبأ بهم، كاتب مغرور وأناني لا يهمه سوى الحصول على القدر المناسب من الإلهام كي يستكمل ما بدأ، لكنه حال يفقد رغبته، لا يصغي إلى متطلبات أحد، حتى وإن كان من أبناء وبنات خياله. كان يجوب شوارع وسط البلد ذهابًا وإيابًا آملاً في أن يلمح تفصيلة تمكنه من استكمال روايته. كان ذلك النوع من الكتاب الذي لا يلهمه أبداً موج الحبر وزهرة عباد الشمس، إلهامه كان نابعًا فقط من الناس، وبين الناس ومن حكايات الناس. وما يسكنه هؤلاء الناس وما يفعلونه طوال أيام الاسبوع. لذلك اتخذ لنفسه من وسط البلد مؤلاً، ربما أن تلهمه حكايات الناس ها هنا بشيء يستحق الكتابة.

حين انتهى من جولته، قرر أن يكافئ نفسه على شرف المحاولة بكوب من الشاي في أحد مقاهي وسط البلد القديمة ذات الكراسي الخشبية والطاولات المعدنية الصغيرة التي تصدر صوتًا كلما وضع أحدٌ عليها شيئًا. كان المقهى مزدحمًا، لكنه استطاع أن يجد لنفسه كرسي يتيم في وسط جموع العمال والصنايعية وأصحاب المعاشات، الذين يقطنون تلك القهوة كبيتهم الثاني، كان الشاب الوحيد الجالس هناك في هذا الوقت من اليوم، فمواعيد الشباب تبدأ عادة بعد السادسة مساءً، وليس في الثانية ظهراً. ألقى بنفسه على الكرسي بإجهاد، وأخرج سجائره وطلب من "القهوجي" قهوة سادة، تناسب مزاجه الحاد في هذه الساعة. أخرج دفتره وأمسك بالقلم وظل يتأمل حوله، ربما يجد شيئًا ما يستحق الكتابة. التقت عيناه بعجوز يبتسم له ابتسامة ساخرة إلى حد ما. كان شعره يغطي فقط جانبي رأسه وأصلع فيما تبقى، يرتدي نظارة ربما يذهب عهدها إلى أيام الملك "فاروق"، لكنها تناسب سنه الذي ربما كان من عهد الملك "فاروق" أيضًا. كان مرتديًا كوفية بلون كحلي، وحلة رمادية، وممسكًا بعصى خشبية تعينه على المشي. ابتسم له الشاب وألقى التحية "ازي الصحة يا حاج" فضحك الآخر ودعاه للجلوس على طاولته.

– من أنت؟ أنا أحفظ وجوه كل من يرتاد على هذه القهوة عن ظهر غيب. ولست واحد منهم.

– أنا كاتب، أبحث عن شيء يلهمني في ذلك الحي، فساقتني قدماي إلى قهوتكم.

- آآآه، كاتب. وماذا تكتب؟ روايات أم أنك صحفي؟

- لست صحفيًا، أعني أنني لم أعد كذلك. كنت أعمل بها لسنوات قبل أن أقرر أن أكتب كتابة حرة لا تخضع لنقد رئيس التحرير، ولا تعبر عن أراء الجريدة، بل آرائي أنا.

- فهمت.. أهلاً بك.

- وأنت من تكون؟

اعتدل العجوز في جلسته، وقهقه مجدداً، كان يبدو لي غريب الأطوار، أو ربما أن تلك الاطوار هي التي ترفق التقدم بالسن وبلوغ الشيخوخة. لست أدري! لكن في قرارة نفسي شعرت أن ذلك الرجل الذي يجلس أمامي هو مصدر الإلهام الذي كنت أبحث عنه في شوارع وسط البلد واهتديت إليه أخيراً. فلن أدع هذه الفرصة تفلت من بين يدي! نظرت إليه باستنكار، فقال:

-لا تتعجب، فالإجابة على ذلك السؤال ليست بيسيرة كما تظن أنت. ما زلت شابًا، تستطيع تعريف نفسك بمنتهى السهولة، فمنذ فترة إذا سألك أحدهم من تكون فقد كانت إجابتك "صحفي"، والآن حين سألتك أنا من تكون أخبرتني أنك "كاتب". والناس يا عزيزي اعتادوا أن يقوموا بتعريف أنفسهم طبقًا لوظائفهم، رغم أن ذلك التعريف ربما هو أكثر شيء مؤقت وغير حقيقي في الدنيا. فهل أنت فقط كاتب؟ حسنًا هناك ملايين بل مليارات الكتاب. من أنت في النهاية؟

قُلت له: ربما فقط لأن ذلك التعريف هو الأسرع والأكثر اختصاراً و...

فقاطعني وقال: لقد أمضيت سنوات حياتي الثمانية وسبعون أقرر من أكون وأضع لنفسي تعريفات ومسميات، وأحشر نفسي بين قوالب هويات مختلفة؛ كي أتمكن من تعريف نفسي، لا للناس، بل لنفسي، ولقد كان ذلك هو شغلي الشاغل طوال حياتي، حتى أصابني الجنون والاكتئاب، وشعرت بالضياع. هل تعتقد أنني أبالغ؟

لم ينتظر لسماع إجابتي، بل أشاح بنظره عني، واستكمل محدثًا الفراغ الذي ينظر إليه بمنتهى الجدية والاهتمام:

-كنت الطفل الأول، والوحيد بعد عدة عمليات إجهاض أسفرت عن يأس أبي وأمي من مجيء طفل آخر، فاكتفوا بي وكنت محور اهتمامهم. لم يكن لهم شغل شاغل سواي، كانت كل متطلباتي مُجابة، والحال يسير وأبي من أغنى العائلات، لكنه حين تزوج من أمي، رفضت عائلته ذلك الزواج، فاضطر إلى هجر تلك العائلة في مقابل أن تكتمل تلك الزيجة، وبالفعل قاطعه كل أهله، لكن أحواله كانت يسيره وكان ما زال غنيًا. أمي على النقيض كانت من أسرة بسيطة جداً، وكانت ربة منزل جميلة، كانت حقًا جميلة، لكنها أحبتني حبًا زائداً عن الحد، للدرجة التي صنعت مني شخصًا غير مسؤول ومستهتراً لا يعرف شيئًا إلا أن أوامره مُجابة، حتى جاءت النهاية التي وضعت لاستهتاري حداً، وحولت تلك الجنة التي كنا نعيش فيها إلى قبر، يوم وفاة أبي إثر حادث سير. في تلك اللحظة، وُضعت النهاية لكل أحلام أمي الوردية، وصفعتنا الحياة صفعة لم نقدر على مقاومتها، وانقلب كل شيء رأس على عقب، لم يعد لدينا ما يكفينا من المال، ولم يتدخل أهل أبي يومًا لمساعدتنا، بل فعلوا كل ما في وسعهم

كي يتخذوا نصيبهم من الميراث الذي ذهب أغلبه للديون التي اكتشفناها بعد وفاته، وهكذا صار الابن المدلل مُجبراً على تحمل المسؤولية في سن الرابعة عشر، وإلا مات هو وأمه. وفي ذلك الوقت تحولت من كوني "الطفل المدلل" إلى "الطفل المثير للشفقة" الذي يعول همّ نفسه وأمه بعد وفاة والده.

وانقضت تلك الفترة، ورحلت أمي هي الأخرى بعد أن ظلمتها الحياة كثيراً من يوم وفاة والدي، وكان الموت هو أكرم ما حدث لها منذ ذلك الحين. وحين رحلت، صرت وحيداً تماماً، لا أعلم شيئًا عن عائلة أبي، وعائلة أمي لم يكن تبقى منها أحد. كنت تخرّجت لتوي من كلية الهندسة، ولم أعرف للحياة معنى سوى بصحبة أمي، لما رحلت أخذت معها كل معاني الحياة، فتمكنت مني الوحدة، وتمكن مني الضعف والحزن والانكسار، وقضيت أيامي كلها أكتب من شعوري حيال ما يحدث، وعن أنني ما زلت أبحث عن نفسي حتى الآن. إذا سألني أحد حينها من تكون، لأجبت أنني شاب فقد أمه للتو، ولم تكن كلية الهندسة ستخطر لي على بال مطلقاً. كل ما كان يشغلني هو طوفان الوحدة الذي قضى عليّ وسلبني كل قوتي وأظهر لي عجزي أمامي. ولم أجد من حزني مفراً سوى في الكتابة، فكتبت صفحات لم أعد أتمكن من عدها، ولم أكن أعد لقرائتها أبداً، لأنها دليل ضعفي وعجزي الوحيد، فكنت أتعمد أن ألقي تلك الصفحات بامتهان، كأنني أنتقم من ضعفي، وفي خضم رحلتي مع الكتابة، اختلقت شخصية كانت لي الونس والصحاب، وتحولت بعد ذلك إلى حبيبتي الخيالية، هل تتخيل أن أحداً يمكن أن يقع في حب شخصية من صنع خياله؟ لقد كنت

بائساً ومحطماً إلى هذا الحد. كان اسمها "يوتوبيا". تحولت كتاباتي كلها إلى رسائل تبدأ بـ "إلى حبيبتي يوتوبيا.." كنت أمتلك من الخيال ما يكفي لتصورها تماماً كبشرية من لحم ودم وملامح.

رسمت لها صورة في خيالي، واجتهدت في رسم تلك الملامح بدقة؛ كي لا تتوه من ذاكرتي، وكنت أحدق إليها في خيالي كل يوم قبل أن أخلد إلى النوم. أغمض عيناي فاراها وأبتسم، وأشعر أن هناك من يهتم لأمري ويسمعني، فيطمئن قلبي. قضيت أياماً كثيرة جداً أكتب لها عن تفاصيل يومي، أخبرتها كيف أنني التحقت بعمل بعد أن قضيت عاماً في الحزن على أمي، حتى نفذت كل النقود التي كانت باقية لدي.. أخبرتها عن طبيعة العمل في شركة مقاولات، وكيف أنني أجد في الناس والعمال عزائي، وأن ذلك العمل خفف عني الكثير، من بعدها بالطبع. أخبرتها أنني ألتهم الكتب التهاماً في ليلي الصامت، قرأت الكثير جداً من الروايات في ذلك الوقت. عشقت روايات "نجيب محفوظ" بتفاصيلها الكثيرة وقدرته العبقرية على تصوير كل "شبر" في روايته، حتى تشعر أنك ترى فيلماً سينمائياً أمام عينيك. أخبرتها أنني بدأت أتعلم الطهو، لكنني ما زلت فاشلاً في ذلك الأمر.. وأخبرتها أنني أحب الكتابة إليها في "القهوة" أو في شرفتي؛ لأن كل نسمة هواء تذكرني بها، والنجوم والشمس وكل شيء منير له منها نصيب، فيثير في الرغبة في الكتابة إليها أكثر وأكثر. كنت اتغزل بها في بعض الرسائل وأخبرها عن سبب تسميتي لها "يوتوبيا". المدينة الفاضلة لـ "أفلاطون". لأن تلك المدينة لم تكن تعرف سوى المثل العليا، والخير والسلام. تماماً كحبيبتي، لكن تلك المدينة أيضاً خيالية، وكذلك كانت حبيبتي أيضاً.

ومرت السنوات، ولم يعرف قلبي شيئًا يذكر عن النساء سوى زميلات العمل، لم يدق قلبي ناحية امرأة، كأنني وقعت بالفعل في حب تلك الشخصية الخيالية التي كنت أخفيها سراً، حتى عن أقرب الاصدقاء إليّ. حتى حان ذلك اليوم الذي تغير فيه كل شيء. كنت أصعد سلالم البيت، فوجدت عُمالاً يحملون أثاثًا جديداً صعوداً ونزولاً، فتحققت من الأمر حتى علمت أن أسرة جديدة انضمت إلى عمارتنا القديمة، في الشقة المهجورة التي كانت إلى جواري. ابتهجت حتى قبل أن أرى السكان، لقد كنت في تلك الفترة أبتهج لمجرد فكرة أن هناك بشراً من حولي بعد فترات وحدتي، فابتهجت أنه بعد كل تلك السنوات في هذا المبنى القديم سيسكن أحدهم في شقة مجاورة! وصلت إلى الدور الثالث الذي فيه شقتي، وذهبت قصداً إلى الشقة المجاورة ذات الباب المفتوح، وقفت أمام الباب لبضع ثواني، أنتظر أن يخرج أحد، لكن العمال كانوا في كل مكان، فدفعوا بي إلى الداخل؛ لأنني كنت أعطل أعمالهم، فوجدت نفسي في الصالة أمام امرأة عجوز تتكأ على عصى خشبية، كالتي في يدي الآن. فنظرت إليّ في ذعر، فأخبرتها أنني أسكن في الجوار وأردت أن ألقي السلام، فرحبت بي على الفور وأخبرتني أنها أرملة وانتقلت إلى هنا هي وحفيدتها بعد أن هزم سرطان الثدي ابنتها، وانتقلت حفيدتها للعيش معهم، فقررا أن ينتقلا إلى مكان جديد في محاولة من الهرب من تلك الذكريات المؤلمة التي لم يتمكنوا من تجاوزها. أخذنا الحديث عن ابنتها، وعن أمي التي رحلت، حتى ظهرت تلك الحفيدة. "يوتوبيا!" "يوتوبيا" التي رسمتها في خيالي كانت واقفة أمامي من شحم ولحم، تبتسم لي وتمد يدها لمصافحتي، بينما

أنا واقف ها هنا مذهولاً من ذلك السحر الذي وقع عليّ منذ اللحظة الأولى. مددت يدي المرتجفة لمصافحتها، ولم أكن أرغب في ترك هذه اليد أبداً. حتى بدا ارتباكي واضحًا ورحلت إلى شقتي. ما إن دخلت إلى منزلي حتى بقيت أفتش عن كل الرسائل التي كتبتها إلى "يوتوبيا"، كي أتأكد أن تلك التي رأيتها فعلاً تشبه الملامح التي كتبت عنها لسنوات.

كانت ترتدي فستانًا أصفر بدوائر بيضاء صغيرة متناثرة هنا وهناك، يصل طوله إلى ركبتيها تقريبًا. كان ذو أكمام قصيرة، فقد كنا في الصيف، وشعرها البني كان قصيراً، يصل بالكاد إلى أسفل أذنيها المرتديان حلقًا من اللولي. وجهها خمري يزينه القليل من النمش على أنفها وأسفل عينيها الواسعتين الشديدتين السواد. ابتسامتها كادت أن تسبب لي اضطرابًا في النبض! هي أجمل ابتسامة رأيتها بعد أن رحلت ابتسامة أمي. هكذا تمامًا كنت أصف "يوتوبيا" في كتاباتي. وهكذا تخيلتها، إلا أن أمر النمش هذا كان الفارق الوحيد الذي جعلني أتأكد أن الواقع جلب لي من كنت أحلم بها في خيالي بل أجمل! لم أكن أعرف عنها شيئًا ولا حتى اسمها. الأمر برمته كان أشبه بدعابة لا معنى لها، لكن هل شعرت يومًا بذلك اليقين الذي يسكن قلبك فجأة؟ هل سمعت يومًا ذلك الصوت الذي يهمس في أذنيك أن شيئًا جميلاً سيحدث، وأن القدر سيبتسم لك أخيراً؟ لم أكن أتوهم، بل إنني سمعت وشعرت بذلك فعلاً في أعماق نفسي، ولم أكن أصدق أي شيء سوى ذلك الصوت. مضيت الليل كله أكتب إلى "يوتوبيا"، كيف أنني التقيت بها أخيراً، وكيف أن دقيقتين أمامها كانا كافيتين لإيقاعي في شباك حبها الأفلاطوني الجميل. أخبرت "يوتوبيا" أنني

لن أدعها تفلت مني، وأن الحياة لم تمنحنِ الكثير مسبقـًا، فهذه الجميلة حتمـًا مكافأتي من السماوات.

مرّت الأيام، وكنت أتردد عليهم باستمرار، بحجة أنهم سيدتين بلا رجل، فجعلت من نفسي رجل ذلك البيت، وكانتا مرحبتين جداً بوجودي، فصارا بفعل المواقف والزمن عائلتي. أتناول معهم الغذاء، أقضي لهم حاجاتهم، أمضي الأمسيات في منزلهم بصحبة الشاي والكعك، والكثير من حواديت العجوز التي كانت بمثابة جدتي أنا أيضـًا. أحببت ذلك البيت من كل قلبي، وأحببت "يوتوبيا" الحقيقية، وشعرت أنها تكنّ لي نفس المشاعر. كانت تفعل بي المستحيل، في صحبتها كنت أشعر بالامتنان للحياة، وليس فقط حب الحياة، كانت تغمرني بابتسامتها وحكاياتها عن جدتها، وعن الروايات التي تقرأها، وعن أمها التي رحلت عن الدنيا. كانت تخبرني عن أحلامها فتلمع عينيها وتزداد توهجـًا وتضطرب نبضات قلبي. كانت تبث في حياة لم أكن أعلم أنها موجودة من الأساس، وصارت هي شغلي الشاغل، وحلمي الوحيد، وأملي الأكبر. حتى أخبرتها أمام جدتها في ليلة من ليالي الشتاء التي كنت أقضيها معهم أنني واقع في حب تلك الفتاة التي سحرتني، وأنني أرغب في الزواج منها. لم أر ملامحها بهذا الجمال بقدر ما رأيتها في ذلك اليوم. ضحكت، كعادتها حين ينتابها الخجل، واحمرّت وجنتيها كعادة الفتيات، ونظرت إلى جدتها، فضحكت هي الأخرى، ولم تقل سوى "ربنا يقدم اللي فيه الخير" ففهمت موافقتها، لكنني رغبت في سماع إجابة حبيبتي، فطلبت ردها. وأخبرتني أنها تكن لي نفس المشاعر، وأنها موافقة.

وتزوجنا، ولم أكن أناديها إلا "يوتوبيا". عشت معها في سعادة لم يكن لها آخر، حتى في خلافاتنا كانت وديعة ورحيمة. لم يشأ الله أن نُرزق بأطفال، لكنني كنت قد اكتفيت بها عن كل شيء، وهي كذلك، فلم يشعر أحدنا بحاجة ماسة إلى أطفال. كانت شريكتي في كل جوانب الحياة، ولم تكن للأيام معنى سوى بضحكتها التي لم تشِخ أبداً. قضت معي أربعين عامًا من المودة والرحمة، حتى شاء الله أن تفارقني، وكم تمنيت لو كنت أنا الذي رحلت من قبلها؛ حتى لا أشعر بوجيعة الفراق مجدداً، لكن إرادة الله تفوق كل شيء. بعدما رحلت، شعرت برغبة عارمة في أن يكون لي ابن أو ابنة منها يذكرني بها، لكنني حُرمت منها تمامًا، وكأن الحياة تصمم أن تعيدني إلى نقطة الصفر كلما ظننت أني تجاوزتها. منذ ذلك اليوم، وأنا أكتب إلى "يوتوبيا" مجدداً، إلى "يوتوبيا" الحقيقية التي اتخذت من قلبي مسكنًا، وزرعت فيه دفئًا ورحمة، بعد ما كان أشبه بقبر معتم. ظلت رسالاتي إليها هي عزائي الوحيد، أذهب إلى قبرها أسبوعيًا، وأقرأ لها رسالاتي التي كتبتها على مدار الاسبوع، ثم أدعو لها وأرحل. وما زلت على هذه الحال لقرابة سبعة سنوات. لذلك أنا اليوم أرتدي تلك الحلة الرمادية، أتظن أنني أجلس يوميًا على القوة بمثل تلك الملابس؟! أنا فقط عائد من عند حبيبتي، ولا أحب إلا أن تراني أنيقًا وجميلاً من أجلها.

فاذا سألتني من أكون، لن أذكر لك مهنتي، لن أذكر لك أنني ابن الغني الذي رحل فجأة، لن أذكر لك أنني الشاب اليتيم الذي فقد أمه في بداية الطريق، ولن أخبرك أنني ذلك الجار المُحب. سأخبرك فقط أنني مُخلص لـ "يوتوبيا"، منذ عرف قلبي معنى الحب. أنا الساكن الوحيد تلك المدينة الفاضلة، ولن يُخرجني منها شيئًا أبداً..

جلسة السبت

لم تكن الإضاءة البيضاء المرتعشة هي الشيء الأكثر سوءاً في ذلك المكان، ربما أنها كانت تضيف إلى كآبته لمحة إضافية، لكنني لن ألقِ باللوم كله عليها، بالطبع هناك شيء ما يجب أن يُلقى عليه اللوم، لكنني لا أستطيع تحديده بالضبط الآن، ربما لكثرة الأشياء، وربما لتشتت انتباهي المعتاد، وربما لأن العالم كله لم يعد يمنحني سوى صفعات جديدة كل يوم، فعلى من ألقِ اللوم؟

كل يوم سبت تخطو قدمي ذلك الممر الطويل التي تنتشر على جانبيه دواليب معدنية تزيد من قبحه.. أكرهه، أكره حتى ذلك البلاط الرمادي الغريب الذي كان له يومـًا لونـًا آخر، اختفى تحت وقع الأقدام التي تدهسه كل يوم. أشعر دومـًا أن ذلك الممر لن ينتهي أبداً، أو أنه إذا انتهى سيودي بي إلى الجحيم لا محالة، فهذا القُبح لا يمكن له إلا أن ينتهي بما هو أسوأ، هل الجحيم أسوأ؟ ما هو الجحيم أساسـًا؟ وما الفرق بينه وبين حياتي تلك التي يُقال إني أعيشها؟ حسنـًا، لا يجب أن أفكر في كل تلك المسائل الآن،

لديّ الكثير جداً من الوقت لأفكر في كل تلك المآسي حين أعود إلى حياتي العابسة بعد انتهاء تلك الساعات الطويلة جداً التي لا تتعدى الساعتين بحساب الزمن، لكنها تتعدى العمر بأكمله بحساب إحساسي.

لست أدري إن كان هناك بشراً يزورون ذلك المكان الرهيب غير ثلاثتنا وذلك الطبيب البائس الذي يقضي وقته في سماع حكاياتنا موهومًا بأنه سيعالجنا بتلك الطريقة البلهاء! لم أقنع به يومًا، لم أقنع بالأطباء جميعهم، وخصوصًا ذلك الطبيب، له هيئة ضابط مباحث أكثر من طبيب نفسي. أظن أنه في الثلاثينيات من عمره، طويل القامة ووزنه يعد مثاليًا، له ذقن مهندمة ودائمًا ما يرتدي نظارة شمس لا يخلعها إلا حين يدخل الغرفة البائسة ويلقي علينا بتحية يظنها حارّة، ونراها نحن مليئة بالرياء والخداع. يظل يدخن طوال الجلسة، ربما هذا من ضمن الأسباب التي جعلتني لم أقنع بالأطباء يومًا، فطبيب التغذية تجده معتزاً بذلك الكرش الذي لا يستطيع الاختفاء، وطبيب العيون دومًا ما يرتدي نظارة طبية، وبقية الأطباء يدخنون تمامًا كما لو كانوا كُتابًا تعني لهم السجائر معانٍ كثيرة.

حين تطأ قدماي تلك الغرفة، أشعر على الفور بالغثيان، ليس لأنها قبيحة كما الخارج، بالعكس هي غرفة منمقة جداً، ولولا ما يحدث فيها كانت ستروق لي كثيراً. أرضيتها خشبية تصدر أصواتًا طفيفة مع وقع الأقدام عليها. فيها خمسة كراسي يظل أحدهم وحيداً في كل جلسة. فيها شرفة واسعة، بابها من زجاج، يُدخل إلينا بعضًا من ملامح الحياة الخارجية، بينما نحن محبوسون هنا. وعلى اليسار تنتصب مكتبة ضخمة بفخر تمامًا كتمثال رمسيس، ربما لأنها تحتوي على كتبٍ قّيمة، لم يمسها أحد سوى

التراب الذي تخلل كل صفحاتها. حسنًا، أنا لم أهتم أبداً بالقراءة، فلأدع تلك المكتبة وشأنها، فهي بلا شك تضفي على ذلك المكان شيئًا من الوقار والهيبة والإجلال.

وصلت اليوم مبكراً، وتمنيت لو لم يأتوا أبداً، خصوصًا ذلك الطبيب الموهوم. جلست على الكرسي المقابل لكرسي الطبيب، رغبت في أن أتفحصه أكثر، بينما هو يتصنع الاستماع إلينا، أو إليهم بمعنى أدق، فلم أكن أنطق سوى بضع كلمات منذ أن أصل إلى أن أرحل، فقط لأنني غير مقتنع بتلك المسرحية السخيفة التي نمثلها سويًا. هذه هي جلستي الـ... حسنًا أنا لم أعد أتذكر الأرقام أو الأيام، لكنني أتردد على ذلك المكان منذ أن وقع لنا ذلك الحادث.. يوم توقف الزمن، واليوم الأخير الذي ما زلت أذكر تاريخه في حياتي.

كنا حينها عائدين من شرم الشيخ إلى القاهرة، لم يكن معنا أحد. فقط أنا وهو، لم يكن صديقي فحسب. كان جلّ ما أملك في الدنيا، فلا إخوة لي ولا عائلة، ليس هناك سوى عمتي التي قامت بتربيتي منذ ماتت أمي وهاجر أبي إلى كندا، تاركًا ابنه الوحيد. كبرت في بيتها ولم يكن لديها سواي، ولم يكن لديّ أنا سواه بعدها. صديقي منذ أن كنّا في الصف الأول الابتدائي، كنّا جيرانًا حتى قبل أن نصبح في مدرسة واحدة. لم يقم أحدنا بشيء دون علم الآخر. لم أفتقد أمي ولا أبي يومًا؛ لأنه كان يكفيني، فقد كان بمثابة كل العلاقات والمشاعر التي أحتاج إليها. كنّا نكبر سويًا، وتكبر صداقتنا معنا. لم نكن كثيري الاختلاف، وحتى لو اختلفنا، لم يكن يمضي اليوم إلا

وأحدنا في بيت الآخر يسترضيه ويُذكره بتفاهة الخلافات كلها أمام قدسية تلك الصداقة، التي لا يمكن أن تنهزم.

صار عمرنا الآن سبعة وعشرون عامًا، ولم يغب عن حياتي يومًا واحداً، لمدة عشرين عامًا. دخلنا نفس الجامعة وعملنا بنفس المجال، ولم يمض يوم واحد دون أن نقضي وقتًا معًا. كانت أوقاتنا هي الدافع الذي جعل لكل واحد منا أحلامًا وطموحات، أحاديثنا ومواقفنا هي التي صنعت منّا الشخصيات التي يحترمها سكان الحي بأكمله. فلِم تصفعني الحياة تلك الصفعة التي أفقدتني كل شيء في أقل من ثانية؟ ما الذنب الذي أدفع ثمنه الآن؟

كانت تلك رحلتنا الأخيرة إلى شرم الشيخ، مدينته المفضلة، عدنا في سيارتي وكان راكبًا بجواري، يغني بصوته الذي طالما أخبرته أنه أسوأ صوت في العالم، وهو جلّ ما أحتاج الاستماع إليه الآن. وقفنا في استراحةٍ ما وأصرّ هو أن نبدل الأماكن ويكمل هو مسيرة القيادة حتى نصل إلى القاهرة، لم يكن أمامنا الكثير من الوقت، وكنت أنا متعبًا، فوافقت. وحين ركبت بجانبه استسلمت لنوم عميق، حتى سمعت صوت الفرامل تصدر صريراً ما زلت أسمعه حتى الآن، ثم اصطدمت سيارتنا بسيارة نقل كانت تحمل أسياخًا حديدية، اخترقت زجاج سيارتنا الأمامي من الناحية اليسرى، ناحيته.. قتلته. رأيته وقد اكتست ملابسه ووجهه ببحر من الدماء لم أعد أعرف مصدرها، ولم أتمكن من إنقاذه، فقد تجمدت مكاني ولا أذكر أي شيء بعد تلك اللحظة.

أخبروني فيما بعد أنني كنت مصاباً بإصابات خطيرة، وبقيت في المستشفى لأكثر من شهرين، لم أتكلم فيهما والحقيقة أنني لا أستطيع حتى تذكرهما. ربما أن ذلك من حظي، فأنا لا أود تذكر ردة فعلي حينما تأكدت من وفاته وحين دفنوه ودفنوا روحي معه. يقولون إنني كنت في غيبوبة، فلم أعاصر تلك الأحداث من الأساس، لكنني الآن أشعر بها تقتلني كل يوم، كل ساعة.. كان من المفترض أن أموت أنا وليس هو، لمَ طلب مني أن نبدل أماكننا؟ لم يسبق له أن يرغب في القيادة على طريق سفر أبداً. لماذا أصرّ على ذلك ولماذا وافقت! لماذا لم أشعر أن ثمة أمر غريب سيحدث لنا، لماذا لم نمُت معاً كما عشنا معاً؟ لماذا اكتفى جسدي بتلك الإصابات الخطيرة، ولم يلفظ روحي مثلما فعل جسده هو؟

والآن؟ الآن يظنون أنني أعاني من بعض الاضطرابات النفسية جرّاء ما حدث، وأنها صدمة وأزمة ووقت عصيب و.. و.. و..، أشفق عليهم. أشفق عليهم من أوهامهم، يظنون أنني ما دمت أواظب على تلك الجلسات السخيفة التي يظنون أنها ستدعمني وتشفيني، فسأعود إلى حياتي الطبيعية كما كنت من قبل رحيله! أشفق عليهم لأن عقولهم الصغيرة صورت لهم أنني أمر بأزمة نفسية. أنا انتهيت.. انتهيت منذ رأيته ميتاً. هل يعود الميت إلى الحياة ببضع جلسات نفسية؟ أنا لست بحاجة إلى علم هذا الطبيب أو غيره، أنا بحاجة إلى إنهاء حياتي التي لم أعد أشعر بمبرر لها، أنا فقط بحاجة إلى لقائه في العالم الذي هو فيه الآن.

ها هم الآن يدخلون، البؤساء أمثالي، لا ليسوا مثلي، أظن أن حياتهم مستقرة وتسير بشكل أفضل من حياتي.. أو مماتي. لقد سئمت الاستماع إلى قصصهم وسماع الردود المزيفة التي يلقيها عليهم ذلك الطبيب المنافق كل مرة، لقد سئمت حتى من رجاءه لي بأن أتكلم أو أن أضف شيئًا إلى حكاياتهم التي يراها شيقة، وتستحق الإضافة!! إنني حتى لا أدري السبب وراء وجود ثلاثتنا معًا في تلك الجلسات، لمَ لا يُعالج كل منّا على حِدة؟! أنا لا أحضر تلك الجلسات إلا بناءً على طلب عمتي وما تبقى لي من أصدقاء سواه. أرضيهم حتى أقنعهم أنني شخص سوي يمكن التعامل معه، أو ربما أنني أرضيهم فقط لإسكاتهم وإبعادهم عن حياتي التي لم تعد في حاجة إليهم.

ستنقضي تلك الساعات وأنا أحلِّق في وجوههم واحداً تلو الآخر؛ حتى أرى وجهه بينهم تمامًا كما أراه في وجوه الناس جميعًا، ثم سأتمتم ببضع عبارات كي يكف ذلك الطبيب عن التحدث إليّ ويوجه اهتمامه إليهم بدلاً مني، ثم سنستمع إلى نصائحه البلهاء قبل أن نودع بعضنا البعض، وننال الحرية. ستنقضي تلك الساعات حتى أعود إلى ذاكرتي وحياتي التي ليس فيها شيء يُذكر سواه.

الفهرس

١. صديق الموتى	١
٢. عازفة الحروف	٥
٣. عشرون عامًا بعد الثورة	٩
٤. عم يونس	١٥
٥. لو عاد	١٩
٦. ذنب لم يُرتكب	٢٣
٧. منذ سبعة أشهر	٢٧
٨. ثم قالت..	٣٣
٩. عند مفترق الطرق	٣٧
١٠. زيارة غير متوقعة	٤١
١١. الآن نلت الحرية	٤٧

١٢.	على الضفة الاخرى من العالم	٥٣
١٣.	ساكن القبور	٦٣
١٤.	إلى يوتوبيا..	٦٩
١٥.	جلسة السبت	٨١